
لماذا الإسلام؟
إعداد: أبو محمد مور كبي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله فاطر العالمين، إله الأولين والآخرين، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله المبعوث رحمة للعالمين، وهاديا للخلق أجمعين؛ محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فإن الجهل بالإسلام من أكبر الأسباب الحاملة على بغضه والإساءة إلى أهله، والمعادي للإسلام أحد الرجلين: إما جاهل بمحاسن الدين الإسلامي، غافل عن المقاصد السامية التي جاء من أجل تحقيقها للبشرية جمعاء.

فبسبب سوء فهم هذا الصنف لتعاليم الإسلام وتشريعاته قد تكون منه مواقف عدائية تجاه الإسلام والمسلمين؛ إذ حكم الإنسان على الشيء يتفرع عن تصوره له، والجهل عامل للعداوة والنفور.

وإما مغرض صاحب هوى، يرى في الإسلام ما يحول دون وصوله إلى أغراضه السيئة، فيحشد الجموع، ويجند الجموع لمحاربة الإسلام وأهله؛ بكل ما أوتي من قوة مادية ومعنوية.

ومعلوم بالتجربة أن تشويه صورة الإسلام يعد من أقوى الأسلحة التي يسخرها هذا الضرب لحربه، وغرضه في ذلك أمران:

الأول: تنفير من لم يكن من أهله عن الإسلام؛ بل ولينقلب عدوا يحاربه ويسعى في خرابه.

الثاني: خداع الأغمار من المسلمين بما يلصق بدينهم من الأوساخ وسوء الأوصاف الذي يضيقون به ذرعا، وقد يفضي ذلك ببعضهم إلى الشك في صحته أو التزحزح عنه خشية أن ينسبوا إلى الذم والشين.

فكان في وجود هذا الصنف والذي قبله ما يحتم على كل من قدر من المسلمين على إظهار الإسلام بمفهومه الصحيح وفي صورته الناصعة أن يفعل.

والطرق إلى تحقيق هذا الهدف النبيل كثيرة؛ منها ما هو تطبيقي عملي، ومنها ما هو نظري علمي، وهما قرينان صنوان يكمل أحدهما الآخر، ولا يقل أحدهما عن الآخر أهمية، وما قد يطرأ من خلل أو قصور على أحدهما يأتي غالبا من سوء أسلوب السالك.

فقد يكون في مخالطة المسلمين ومباشرتهم ما يعرف الإسلام الصحيح ويحببه إلى النفوس ولو كرهت، وكما قد يكون في استخدام آلات النشر والإذاعة على وجه متقن ما يقرر مبادئ الإسلام الصحيحة ويدحض الشبهات والترهات التي تثار لتكدير صفائه وإطفاء نوره.

قال تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾[1]

الحكمة التي أرسى الله عليها الدعوة إلى الإسلام ينبغي أن تظهر في تناسب دعوة الداعي – بمضمونها ووسائلها وطرقها – مع حال المدعو وواقعه؛ لأن الحكمة قد فسرت بأنها: فعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي[2].

والمجادلة بالتي هي أحسن تكون كذلك بلسان الحال ولسان المقال، وقد يجتمع الأمران في الرجل وهو الأفضل، أو يغلب عليه أحدهما لسبب من الأسباب.

ولقائل أن يقول: إنه قد ألف في التعريف بالإسلام ما يكفي ويغني عن الإعادة والتكرار. فيجاب عنه: بأن المقدمة صحيحة بخلاف النتيجة؛ صحيح أنه قد ألف في التعريف بالإسلام الشيء الكثير – ولله الحمد – إلا أنه لا يصح إطلاق القول بأنه يغني عن الإعادة، وذلك لأن التعريف بالإسلام يتنوع بتباين الأهداف المقصودة منه، والأساليب والوسائل تتبع ذلك التنوع، ففي كل زمان ومكان قد يستجد من التحديات والملابسات ما يتطلب تعريفا صحيحا بالإسلام يلائمها.

---

[1] سورة النحل، الآية 125.

[2] انظر مدارج السالكين لابن القيم (479/2)

وليس يعني ذلك في شيء أن المعرَّف يتعدد ويتنوع كما قد يتوهمه بعض الناس؛ بل التنوع راجع إلى الجوانب والأبعاد التي يعول عليها كل معرِّف أكثر من غيره.

يتمخض من كل ذلك أن التعريف بالإسلام تعريفا مقترنا ببيان مقاصده العالية من أصلح الوسائل التي يخدم بها المسلمون دينهم، وأنه من أحسن المسالك التي يواجهون بها مواقف الجاهل من أعداءه والعالم العنيد.

ورجاء الاندراج في تلك المسالك أقدم هذا البحث المتواضع في التعريف بالإسلام وإظهار بعض خصائصه؛ سائلا الله جل وعلا أن يجعله لوجهه خالصا ولعباده نافعا.

أبو محمد مور كبي

أستاذ علوم الحديث بالكلية الإفريقية للدراسات الإسلامية – دكار

لماذا الإسلام ؟

الجواب عن هذا السؤال يضطر الباحث عنه إلى المرور بمراحل قبل الوصول إليه، وذلك لكون كل مرحلة منها جزءا لا يكمل الجواب دونه.

فالمرحلة الأولى: مفهوم الدين، ونشأة التدين في الأرض.

المرحلة الثانية: حقيقة الإنسان؛ ساكن الكون والمستفيد من حركته وسكونه أكثر من غيره من جيرانه، وما الغاية من وجوده في الكون ؟

المرحلة الثالثة: هل بعد حياة الإنسان في هذا الكون حياة أخرى ينقلب إليها ؟

المرحلة الرابعة: حاجة الإنسان إلى الدين لنيل وسائل ضرورية في وجوده.

المرحلة الخامسة: ما هو الإسلام ؟ وما مقاصده ؟

المرحلة السادسة: لماذا جاء الإسلام ؟

فإن هذه المراحل متراكمة متلاصقة؛ يستدرجنا المرور عليها متسلسلة إلى معرفة ما هو الإسلام، وما مكانته في هذه الحياة، ونتحقق بذلك من صدق قول من قال: إن حاجة البشر إلى هذا الدين أشد من حاجتهم إلى الطعام والشراب.

ورأيت من المناسب تناول مهمة التعريف بدين الإسلام بأسلوب متدرج وبتسلسل منطقي حيث يخالج القارئ ويجذبه ليحطه في نهاية المطاف أمام الجواب عن سؤاله: ما هو الإسلام ؟

ووزعت الموضوع في ثلاثة مباحث أساسية وتحت كلٍ مطالب.

المبحث الأول: الإنسان والتدين.

وتحته أربعة مطالب:

المطلب الأول: مفهوم الدين وحاجة الإنسان إلى التدين.

المطلب الثاني: ضوابط معرفة الدين الصحيح.

المطلب الثالث: هل لهذا العالم صانع ؟

المطلب الرابع: ما هي الغاية من وجود الإنسان في هذه الحياة ؟

المبحث الثاني: أمور يتوقف نجاح الإنسان على التصور الصحيح لها.

وتحته أربعة مطالب:

المطلب الأول: حقيقة الإنسان.

المطلب الثاني: مرحلة ما بعد الحياة الدنيا.

المطلب الثالث: الوسيلة التي يحقق بها الإنسان الغاية من وجوده.

المبحث الثالث: لماذا الإسلام ؟

وتحته مطلبان:

المطلب الأول: تعريف موجز بالإسلام.

المطلب الثاني: مقاصد الإسلام.

خاتمة: أجملت فيها بعض النقاط التي تتلخص من معالجة الموضوع ويجدر تأكيدها.

تمهيد في الموضوع

في مطلع هذا البحث عن موضوع: علاقة الإنسان بالدين، أتوجه إلى هذا الإنسان الكائن في هذا الوجود، الإنسان الذي يتولى مهمة تعمير الأرض والتحكم في جريان الأمور على ظهرها وتدحرجها، ويستفيد من عناصر العالم لتحقيق مصالحه الخاصة، فإنه بلا منازعة معمر الأرض وباني حضارتها: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ﴾[3] ﴿ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾[4]

فالإنسان ممكن في الأرض؛ يبني، ويغرس، ويحرث ما شاء، ينتفع بمنافعها، ويستغل مصالحها، وهو مع ذلك متيقن أنه سيغادر ذلك كله يوما من الدهر، وأنه سيرحل من وجوده في هذا العالم إلى وجود آخر مجهول لديه ومخوف.

---

[3] سورة الأعراف، الآية 10.

[4] سورة هود، الآية 61.

أليس من الاحترام لوجودك أيها الإنسان أن تتساءل عن السبب الذي صار به وجودك في الكون ما هو، وأنت ترى أن لوجودك في العالم ارتدادات ونتائج لا تظهر ولا تقع أثناء حياتك الدنيا ؟

ألا يعطل معنى وجودك ويهينه اعتقاد أن لا غاية له ينتهي إليها، ولا مسؤولية عليك في شيء مما جلبته أو جنيته في الوجود؛ مع كونك عاقلا واعيا لما تأتي أو تذر ؟

فعلى العاقل أن يطرح على نفسه هذه القضية لتحليلها، فإنه متى خاض فيها بموضوعية وعقلية انتهى إلى نتيجة حتمية هي أن حركة هذا الكون مآلها السكون، وأن كل مرتفع فيه فنهايته الانهيار لا محالة، وأن ليس من المتصور أن يكون ذانك السكون والانهيار هما نصيب سكانه من وجودهم فيه، فلا بد وأن يكون من ورائهما امتداد لما جرى فيه، ولولا ذلك لصار كل ذلك ضربا من العبث الذي ليس وراءه طائل، ولا استخفاف للإنسان ووجوده أكبر من قول كهذا.

ثم بعد تحصليه لهذه النتيجة يغرمه سؤال آخر هو: ما هي الغاية من وجود الإنسان في هذا الكون ؟ وما السبيل والوسائل لتحقيقها ؟

فبقدر قدرة الإنسان على الإجابة عن هذه التساؤلات يكون نجاحه في حياته الحقيقية؛ إذ له حياتان: حياة جسمية مادية، هو فيها كغيره من الحيوانات. وحياة روحية معنوية، هو بها إنسان مفضل مكرم، فمن حسب أن نجاحه في الأولى دون الثانية هو الغاية من وجوده، فهو حيوان يغالب حيوانا؛ لا غير.

ومثل هذا الصنف خاطب القائل بقوله:

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته -- لتطلب الربح مما فيه خسران

أقبل على النفس واستكمل فضائلها -- فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان[5]

والغرض من هذا البحث الموجز هو الوصول إلى تلك الأجوبة الضرورية على أحسن وجه – بإذن الله تعالى.

[5] من قصيدة عنوان الحكم لأبي الفتح علي بن محمد بن الحسين البستي (ص1)

المبحث الأول: الإنسان والتدين.

وتحته أربعة مطالب:

المطلب الأول: مفهوم الدين وحاجة الإنسان إلى التدين.

إن كلمة الدين من: دان يدين دينا وديانة، وهي تدور على:

- خضوع طرف لآخر.
- وقهر طرف لطرف آخر.
- والعلاقة بينهما.

يقال: دانه إذا ساسه وملكه وقهره، ومنه اسم الله : الديان بمعنى القهار.

ويقال: دان له بمعنى أطاعه وخضع له.

ويقال: دان بالشيء إذا اتخذه دينا ومذهبا أي اعتقده أو اعتاده أو تخلق به[6].

---

[6] انظر مادة (دين) من لسان العرب لابن منظور، و تاج العروس من جواهر القاموس للحسيني: (د ي ن)

فالـــدين هنـــا هـــو المـــذهب والطريقـــة الـــتي يلتـــزم بهـــا الشـــخص نظريًّـــا أو عمليـــا. تقول العرب: ما زال ديني وديدني أي عادتي، والمـــذهب النظـــري عنـــده هـــو عقيدتـــه ورأيـــه الذي يعتنقه.

يتحصل من هذا: أن كلمة الدين تتضمن علاقة بين طرفين يعظم أحـــدهما الآخـــر ويخضـــع لـــه، فإذا وصف بها الطرف الأول كانـــت أمـــرا وســـلطانا، وسياســـة وحكمـــا، وإذا وصـــف بهـــا الطرف الثاني كانت خضوعا وانقيادا، وإذا وُصـــف بهـــا العلاقـــة بـــين الطـــرفين كانـــت هـــي الطريقة المنظمة لتلك العلاقة، أو الشكل الذي يمثلها.

والاستعمال الثالث هو الأقرب لما نحن بصدده، فكلمة الدين الـــتي تســـتعمل في تـــاريخ الأديـــان لها معنيان:

أحدهما: هذه الحالة النفسية – اعتقادا والتزاما – التي يكون بها العبد متديناً.

ثانيهما: تلك الحقيقة الخارجية الـــتي يمكـــن الرجـــوع إليهـــا في العـــادات الخارجيـــة أو الآثـــار الخالدة، أو الروايات المأثورة، ومعناها:

جملة المبادئ التي تدين بها أمة من الأمم؛ اعتقادا أو عملا. وهذا المعنى أغلب وأكثر.

هذا مع أنه ليس كل خضوع وانقياد يسمى في العرف تدينا، فخضوع الغالب للمغلوب، وطاعة الولد لوالده، وتعظيم المرءوس لرئيسه، كل أولئك قد يكون من معدن آخر غير معدن الدين، كما أنه ليس كل رأي ومذهب، ولا كل سيرة وخلق يسمى دينا[7].

أمر آخر، هو أن مفهوم الدين ليس محبوسا في الدين الصحيح المنزل من عند خالق السموات والأرض؛ بل هذا الخضوع الذي يوجه سلوك الإنسان وأنماط تفكيره ويحرك انبساطه وانقباضه هو شيء واسع لا يكاد يخرج منه إنسان.

ولذا يصح أن يقال بأن الإنسان مضطر إلى دين يدين به في حياته الدنيا، فإنه لا بد له من حركة يجلب بها المنفعة، وحركة يدفع بها المضرة، والدين هو الذي يميز بين الأفعال التي تنفعه والأفعال التي تضره، فلا يمكن للآدميين أن يعيشوا بلا دين يميزون به بين ما يفعلونه ويتركون.

[7] انظر كتاب (الدين... بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان) للدكتور محمد عبد الله دراز 80-83.

وليس المراد بالدين المعني هنا مجرد العدل بين الناس في معاملاتهم؛ بل الإنسان المنفرد لا بد له من فعل وترك، فإن الإنسان حارث همام، وهو معنى قولهم: " متحرك بالإرادات "، فإذا كان له إرادة فهو متحرك بها ولا بد أن يعرف ما يريده هل هو نافع له أو ضار ؟ وهل يصلحه أو يفسده ؟

وهذا قد يعرفه بعض الناس بفطرتهم كما يعرفون انتفاعهم بالأكل والشرب، وكما يعرفون ما يعرفون من العلوم الضرورية بفطرتهم، وبعضهم يعرفونه بالاستدلال كالذي يهتدون إليه بعقولهم، وبعضه لا يعرفونه إلا بتعريف الرسل وبيانهم لهم وهدايتهم لهم.[8]

يجد الباحث أن بعض كتاب القرن الثامن عشر الذين مهدوا للثورة الفرنسية[9]، كانوا يزعمون أن الديانات والقوانين ما هي إلا منظمات مستحدثة، وأعراض طارئة على

---

[8] انظر الرسالة التدمرية لشيخ الإسلام (ص 83-84)

[9] يجدر التنبيه على أن الذين كانوا من وراء الثورة الفرنسية أكثرهم أعضاء الحركات السرية، وهم الذين شنوا حربا ضد الكنيسة والمملكة الفرنسية في ذلك الوقت، فسعوا في إسقاط المملكة في فرنسا وإقامة الجمهورية الديمقراطية مكانها، وكما نجحوا إلى حد كبير في إبعاد الكنيسة عن المجتمع الغربي ونزع الثقة بهم من الشعب الغربي، وكذلك روجوا للمفكرين والكتاب الذين كانوا معهم في نشر النظريات المعارضة للأديان.
وهذا مما يكشف السر في كون الحضارات الغربية مؤسسة على لادينية؛ لأن جل الرجال الذين عملوا في إقامة أنظمتهم الجديدة كانوا من أعداء الأديان.

البشرية حتى قال فولتير[10]: إن الإنسانية لا بد أن تكون قد عاشت قرونا متطاولة في حياة مادية خالصة، قوامها الحرث، والنحت، والبناء، والحدادة، والنجارة قبل أن تفكر في مسائل الدينيات والروحانيات[11] بل قال: إن فكرة التأليه إنما اخترعها دهاة ماكرون، من الكهنة والقساوسة الذين لقوا من يصدقهم من الحمقى والسخافة [12].

والكتّاب الذين روجوا لمثل هذه الخرافة الساقطة كثيرون؛ مثل جان جاك روسو وغيره ممن تأثروا بالسفسطائية اليونانية الذين كانوا يزعمون « أن الإنسان كان أول نشأته يعش بغير رادع عن قانون، ولا وازع من خلق، وأنه كان لا يخدع إلا للقوة الباطشة...

ثم كان أن وضعت القوانين، فاختفت المظاهر العلنية من هذه الفوضى البدائية، ولكن الجرائم السرية ما برحت سائدة منتشرة... فهناك فكر بعض العباقرة في إقناع الجماهير بأن في السماء قوة أزلية أبدية ترى كل شيء، وتسمع كل شيء، وتهيمن بحكمتها على كل شيء...» [13].

[10] اسمه: فرنسوى مري أرويت François Marie Arouet de Voltaire مات عام 1778 م

[11] Voltaire, Essai sur les mœurs, p. 14

[12] Id. Ibid. p. 133

[13]

وهكذا لم تكن القوانين والديانات في تصويرهم إلا ضروبا من السياسة الماهرة التي تهدف إلى علاج أمراض المجتمع بكل حيلة ووسيلة.

ولقد أعان على بث هذه الآراء وترويجها في أوروبا الحديثة سببان:

أحدهما: الانحلال الخلقي عند نفر من رجال الكنيسة، وفشلها في القيام بواجبها تجاه الشعب الغربي؛ حيث استغل تلك الظاهرة رجال مختفون من وراء ظلام الحركات اللادينية الهدامة لزحزحة رجال الكنيسة عن الحكم والنظام الذي يتحكم في سير المجتمعات.

ثانيهما: ظلم القوانين الوضعية، وسوء توزيع الثروة العامة، ونتج عن ذلك الحيف انقسام المجتمع الغربي إلى طبقتين: طبقة متوسطة كان لها الاستعمال والغنم، طبقة العمال وكان عليها الأعمال والغرم، واستغلال الأولى للثانية كان يتم بتواطؤ بين رجال السلطة ورجال الكنيسة، فكان من السهل إقناع الناس بأن الدين والقانون إنما اخترعهما بعض الدهاة ليتوسلوا بهما إلى التسلط على الشعوب وخيراتها.

واستغل ذا الوضع مغرضون مستترون تحت أستار الظلام لإقصاء مبدأ التدين عن المجتمع الغربي، وطمس أماراته عن العيش فيه بالكلية.

على أنه لم ينقض القرن الثامن عشر نفسه حتى ظهر خطأ هذه المزاعم؛ حيث كثرت الرحلات خارج أوروبا، واكتشفت العوائد والعقائد والأساطير المختلفة، وتبين من مقارنتها أن مبدأ التدين مبدأ مشاع لم تخل عنه أمة من الأمم في القديم والحديث؛ رغم تفاوتهم في مدارج الرقي ودركات الهمجية.

وهكذا ظهر أن الدين أقدم في المجتمعات من كل حضارة مادية، وأنه لم يقم على خداع الرؤساء وتضليل الدهاء، ولم يرتكز على أسباب طارئة أو ظروف خاصة، بل كان عن فطرة أصيلة مشتركة بين الناس.

مع أنه لا يمكن إنكار أن تكون هناك عقيدة معينة قد استحدثت في عصر ما، إلا أنه وإن وجد شيء من هذا القبيل قد وضع لمواجهة حالة معينة، أما مبدأ التدين في جوهرته فليس هناك دليل واحد على أنه تأخر عن نشأة الإنسان[14].

[14] انظر كتاب (الدين) للدكتور دراز 80-83.

خلاصة الكلام: أن وجود مبدأ التدين مقارن للوجود الإنساني في الكون، وأنه ضرورة فطرية لا يمكن أي إنسان دفعها، وأصل هذا التدين ومنشأه هو إقرار الإنسان بوجود خالق الكون وما فيه، فيقر له بالعظمة والجلالة في قلبه، وذلك يدفعه إلى تأليهه محبة وتعظيما.

واقتضت حكمة الباري عز وجل أن يمد الإنسان بنور وحيه لتعزيز هذه الضرورة التي يحنو إليها، وينير له الطريق إلى الالتزام بلوازمها، فبذلك يُعلم أن قوة التدين منبثقة من داخل الإنسان، وأنه مرتبط بوجوده.

فإن البناء الاجتماعي الذي يحقق به الإنسان مهمة تعمير الأرض التي أنيطت به، لا يتم إلا على قانون يكون احترامه كفيلا بالحفاظ على مصالحهم الخاصة والعامة، وإلا لم يقم لهم مجتمع.

وليس على وجه الأرض قوة تكافئ قوة التدين أو تدانيها في كفالة احترام القانون الاجتماعي، وضمان تماسك المجتمع واستقرار نظامه، والتئام أسباب الراحة والطمأنينة به.

السر في ذلك أن الإنسان يمتاز عن سائر الكائنات الأرضية بأن حركاته وتصرفاته الاختيارية إنما يقودها شيء لا يقع عليه سمعه ولا بصره؛ بل بما هو في قلبه، وبه تزكو روحه وتستقيم جوارحه أو العكس: ((ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب))[15]

ولقد ضل قوم قلبوا هذا الوضع وحسبوا أن إيمان الإنسان ومعتقده لا يؤثران في الحياة المادية الاقتصادية، بل يتأثران بها.

والحق أن الإنسان يساق من باطنه لا من ظاهره، وليست قوانين الجماعات ولا سلطان الحكومات بكافية لإقامة مدنية تحترم فيها الحقوق، وتؤدى الواجبات على الوجه الأكمل، فإن الرقيب الوحيد للإنسان من كل وجه هو إيمانه الذي في قلبه ويتبعه حيثما توجه، وهذا الإيمان على ضربين:

الأول: إيمان بقيمة الفضيلة وكرامة الإنسانية وما إلى ذلك من المعاني المجردة التي تستحي النفوس العالية من مخالفة دواعيها حتى ولو أعفيت من التبعات الخارجية والأجزية المادية.

---

[15] متفق عليه: البخاري في صحيحه باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (52) ومسلم في صحيحه: باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (107)

الثاني: إيمان بوجود خالق العالم بما فيه من مخلوقات، وأنه رقيب عليهم؛ لا تخفى عليه خافية من أمورهم، وأنه يحب منهم الصلاح والخير، ويكره لهم الشر والفساد، فيُلتزم بجميع ذلك محبة له وتعظيما.

وهذا الضرب الأخير هو أقوى الإيمانين سلطانا على النفس الإنسانية، وهو أشدهما مقاومة لأعاصير الهوى وتقلبات العواطف، وأسرعهما نفاذا في قلوب الخاصة والعامة.

من أجل ذلك كان الدين خير ضمان لقيام التعامل بين الناس على قواعد العدالة والإنصاف، وكان لذلك ضرورة اجتماعية، فلا غرو إن حل الدين من الأمة محل القلب من الجسد[16].

ومن اعتبر حال أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى وحال غيرهم في العلوم النافعة والأعمال الصالحة، تبين له أن حال أهل الملل أكمل بما لا يحصى، وإذا نظر ما عند غير أهل الملل من الحكمة العلمية والعملية كحكمة الهند واليونان والعرب من الجاهلية والفرس وغيرهم وجد ما عندهم بعض ما عند أهل الملل من الحكمة العلمية والعملية، فيمتنع أن يكون علماء اليونان والهند ونحوهم على حق وهدى وعلماء المسلمين واليهود والنصارى

[16] انظر كتاب (الدين) لمحمد دراز (ص 98-100)

على باطل وضلال، وكذلك يمتنع أن تكون الأمة لها علم نافع وعمل صالح وأهل الملل ليسوا كذلك.

ففي الجملة لا يوجد في غير أهل الملل من علم نافع وعمل صالح من حكمة علمية وعملية إلا وذلك في أهل الملل أكمل، ولا يوجد في أهل الملل شر إلا وهو في غيرهم أكثر.

فليس عند غير أهل الأديان الثلاثة من معرفة الله وملائكته وكتبه ورسله، ومن عبادته وحده لا شريك له شيء له قدر، والذي عندهم من العلوم الطبيعية والحسابية ليس مما ينفع بعد الموت؛ إلا أن يستعان به على ما ينفع بعد الموت، والذي عندهم من العلم الإلهي قليل جدا مع ما فيه من الخطأ الكثير.

وكل ما عندهم من علم نافع وعمل صالح فهو جزء مما جاءت به الأنبياء عليهم السلام.

وهذا الاعتقاد يوجب لأهل الأديان من الكمال العلمي والعملي ما لا يحصل لغيرهم.

فيصح القول بأن لا صلاح لحياة الإنسان على وجه الأرض ولا استقرار لها دون دين صحيح يدرك به معنى وجوده ويستفيد منه على الوجه اللائق به[17].

[17] انظر الجواب الصحيح لشيخ الإسلام ابن تيمية (5/137- 138)

المطلب الثاني: ضوابط معرفة الدين الصحيح.

وإذا كان الدين عموما بهذه المترلة، فالمشاهد اليوم تعدد الأديان والملل في هذا العالم، وتجد كل قوم بما لديهم من الدين فرحين ومستمسكين، فما الدين الصحيح الذي يحقق للنفس البشرية ما تصبو إليه ؟ وما ضوابط الدين الحق ؟

كل صاحب ملة يعتقد أن ملته هي الحق، وكل أتباع دين يعتقدون أن دينهم هو الدين الأمثل والمنهج الأقوم، وحينما تسأل أتباع الأديان المحرفة أو أتباع الملل البشرية الوضعية عن الدليل على اعتقادهم، فيحتجون بأنهم وجدوا آباءهم على طريقة، فهم على آثارهم مقتدون، ثم يذكرون حكايات وأخبارا لا يصح سندها، ولا يسلم متنها من العلل والقوادح، ويعتمدون على كتب متوارثة لا يعلم من قالها ولا من كتبها، ولا بأي لغة كتبت أول مرة، ولا في أي بلد وجدت، إنما هي أمشاج جمعت فعظمت فتوارثتها الأجيال دون تحقيق علمي يحرر السند، ويضبط المتن.

وهذه الكتب المجهولة والحكايات والتقليد الأعمى لا تصلح حجة في باب الأديان والعقائد، فهل كل هذه الأديان المحرفة والملل البشرية صحيحة أم باطلة ؟

يستحيل أن يكون الجميع على حق، لأن الحـق واحـد لا يتعـدد، ويسـتحيل أن تكـون كـل هذه الأديان المحرفة والملل البشرية من عند الله وأنها حـق، وإذا تعـددت - والحـق واحـد - فأيها الحق ؟

إذاً فلا بد من ضوابط نعرف بها الدين الحق من الدين الباطـل، فـإذا وجـدنا هـذه الضـوابط منطبقة على دين علمنا أنه الحق، وإذا اختلت هذه الضوابط أو واحد منـها في ديـن علمنـا أنـه باطل.

الضوابط التي نميز بها بين الدين الحق والدين الباطل هي:

الأول: أن يكون الدين منزلا من عند الله على رسول من رسـله ليبلغـه إلى عبـاده، لأن الـدين الحق هو ما أسس بنيانه على الوحي الإلهـي، ولا يصـدر فيـه عـن زبالـة الأذهـان ونخالـة الأفكار؛ لأن العقل البشري يصغر عن الاسـتقلال بـإدراك تفاصـيل الأديـان، والعقـل عـين والوحي شمس، فإبصار العين - وإن صحت — يتوقف على إنارة الشمس.

الثاني: أن يكون مؤصلا على توحيد الخالق تعـالى وإفـراده بجميـع حقوقـه، وإبطـال الشـرك وتحريم وسائله، وذلك هو شأن دعوة جميع الأنبياء والمرسـلين، والنـاس هـم الـذين ينحرفـون عن هذا الأساس ويغيرون.

وعلى هذا فكل دين اشتمل على الإشراك بالله في شيء من خصائصه فهو دين باطل ولو انتسب أصحابه إلى نبي من الأنبياء.

الثالث: أن يكون مشتملا على المبادئ والقيم التي دعت إليها الرسل؛ من عبادة الله وحده، والدعوة إلى صراطه، ومكارم الأخلاق والأفعال؛ كالصدق والعدل والأمانة والحياء والعفاف والكرم، وتحريم الشرك وعقوق الوالدين وقتل النفس بغير حق، وتحريم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وينهى عن سيئ الأخلاق والأفعال؛ كالكذب والظلم والبغي والبخل والفجور وأضرابها.

قال الله جل ثناؤه: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[18]

وفي كلمة جعفر بن أبي طالب التي ألقاها على النجاشي: كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا؛ نعرف نسبه وصدقه وأمانته

---

[18] سورة الأنعام، الآية 151.

وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام... فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا[19].

الرابع: ألا يكون في أصوله وتعاليمه اختلاف ولا تناقض؛ بحيث يأمر بأمر ثم ينقضه بأمر آخر، ولا يحرم شيئا ثم يبيح ما يماثله من غير علة، ولا يحرم أمرا أو يجيزه لفرقة ثم يحرمه على أخرى بلا مسوغ صحيح، قال تعالى: ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾[20]

[19] السيرة النبوية لابن هشام (179/2)
[20] سورة النساء، الآية 82.

الخامس: أن يقصد في تشريعاته الحفاظ على المصالح الضرورية للناس ودرأ المفاسد عنها. مثل: الدين والأعراض والأموال والأنفس والنسل؛ لأن عليها قرار حياتهم.

السادس: أن يحق الحق، ويغرس العدل والرحمة بين الخلق، ويبطل الباطل، ويحرم الظلم واعتداء بعضهم على بعض؛ سواء أكان هذا الظلم بانتهاك الحقوق، أم بالاستبداد بالخيرات، يقول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ () وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾[21]

السابع: أن يتضمن هداية الإنسان السبيل إلى تحقيق الغاية من وجوده، ودلالته على مراد الله منه، وإخباره بحقيقته ومصيره، قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾[22]
فقول الله فيما أخبر به حق، وشرعه الذي شرعه حق، والأقوال والأفعال الباطلة لا تنسب إليه بوجه من الوجوه، وليست من هدايته، لأنه لا يهدي إلا إلى السبيل المستقيمة، والطرق

---

[21] سورة النحل، الآيات 90-91.

[22] سورة الأحزاب، الآية 4.

الصادقة الموصلة إلى تحقيق السعادة والطمأنينة للنفس؛ حيث يدفع عنها كل وسوسة، ويجيب عن كل تساؤلات متعلقة بوجوده، ويحل لها كل مشكل.

الثامن: أن يكون متفقا مع الفطرة السوية، والعقل السليم: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[23]

فالدين الصحيح هو شرع الله، والعقل الصحيح هو خلق الله، ومحال أن يتناقض شرع الله وخلقه.

التاسع: أن لا يفرق بين أتباعه بسبب الجنس أو اللون أو القبيلة أو أي اعتبارات من هذا القبيل، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ

[23] سورة الروم، الآية 30.

لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[24] ، فالمعيار المعتبر للتفاضل في الدين الحق هو تقوى الله: الإيمان الصادق والعمل الصالح [25].

العاشر: أن يكون محفوظا من تسلط أيدي الناس عليه، وتبديل أسسه حسب أهوائهم، فالدين الصحيح إنما جاء لصلاح أمر الناس، وإطلاعهم على ما هم عاجزون عن الاستقلال بإدراكه من أصناف العلوم، فإن انقلب هذا الدين ألعوبة تتلاعب بها الأيدي لنيل المطامع والأغراض فقد كل ما كان له من معنى.

يقول الله تعالى عن دينه الذي أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[26]

وقال تعالى عن الذين تلاعبوا بتعاليم دينهم وحرفوا كتبهم: ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾[27]

---

[24] سورة الحجرات، الآية 13.

[25] انظر الإسلام أصوله مبادئه

[26] سورة الحجر، الآية 9.

[27] سورة البقرة: الآية 79.

الحادي عشر: أن يكون مصدقا للأديان التي جاء بها الرسل قبله، ومكملا للأصول الكبرى التي دعوا إليها، مع بيان الحق فيما لبس به الناس من تعاليمهم.

فمن أمثلة ذلك اتهام اليهود نبي الله سليمان عليه السلام بالسحر، وأنه بالسحر ملك الجن والإنس.

وسبب هذا الغلط أن الشياطين عمدت حين عرفت موت سليمان بن داود عليه السلام، فكتبوا أصناف السحر: « من كان يحب أن يبلغ كذا وكذا، فليفعل كذا وكذا »

حتى إذا صنعوا أصناف السحر، جعلوه في كتاب ثم ختموا عليه بخاتم على نقش خاتم سليمان، وكتبوا في عنوانه: « هذا ما كتب آصف بن برخيا الصديق للملك سليمان بن داود من ذخائر كنوز العلم » ، ثم دفنوه تحت كرسيه.

فاستخرجته بعد ذلك بقايا بني إسرائيل حين أحدثوا ما أحدثوا، فلما عثروا عليه قالوا: ما كان سليمان بن داود إلا بهذا !

فأفشوا السحر في الناس وتعلموه وعلموه، فليس في أحد أكثر منه في يهود.

فلما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيما نزل عليه من الله، سليمان بن داود وعده فيمن عده من المرسلين، قال من كان بالمدينة من يهود: ألا تعجبون لمحمد ! يزعم أن سليمان بن داود كان نبيا ! والله ما كان إلا ساحرا !

فأنزل الله في ذلك من قولهم على محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾[28] [29]

هذه التبرئة للأنبياء هي اللائقة بالدين الصحيح، فإنهم كلهم صادقون فيما أخبروا وبلغوا عن ربهم، وهم براء من كل ما يلصق الناس بهم من انحراف خلقي أو عملي.

فالجدير ببيان الحق في ذلك هو الدين الخاتم للأديان، وإقرار الناس على المضي في الخطأ مما ينسب إلى أنبياء لا يتصور من مرسِلهم الحكيم، فكان لزاما على الدين الصحيح أن يشتمل على تفاصيل الأديان السابقة وما طرأ عليها بعد الرسل، ويكون سادا للفراغ الحاصل بسبب ذلك، ولولا ذلك لفات بذلك الغاية من إنزال الأديان وبعثة الأنبياء والمرسلين.

الثاني عشر: أن يحمل رسالة باقية إلى نهاية أمر الدنيا، وشاملة لجميع البشر؛ تتكافأ فيها الواجبات والحقوق، ولا يستأثر بها طبقة دون أخرى، أو تتناسب مع قوم دون غيرهم.

يقول الله عز وجل: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾[30]

---

[28] سورة البقرة، الآية 102.

[29] انظر جامع البيان في تأويل القرآن للإمام الطبري (2/407-408)

[30] سورة الأعراف، الآية 158.

وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول لقومه: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾[31]

فإن انقطاع الوحي الإلهي بتوقف مجيء الرسل يقتضي أن يكون آخر الأديان نزولا متصفا بهذه المعايير حتى تتحقق به المقاصد الكبرى من إنزال سائر الأديان.

والمنصف يعلم ضرورة أن لا يوجد منهاج يتبع، ولا نظام يلتزم، وتوفرت فيه هذه المعايير توفرها في منهاج الإسلام.

قال تعالى عن الإسلام: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾[32]

فإنه الكامل المتمم من جميع هذه الجوانب السابق سردها، والصالح ليتدين به جميع الخلق بلا تفاوت بينهم، وهو صبغة الله التي كل من اصطبغ بها فهو مسلم.

---

[31] سورة الأنعام، الآية 19.

[32] سورة المائدة، الآية 3.

المطلب الثالث: هل لهذا العالم صانع ؟

إن هذا العالم الضخم بما فيه من كائنات، يقطع المتأمل لتحركه وانسجام أحواله والتناسق بين مكوناته بأن ذلك لم يكن عن صدفة، وأنه لا بد وأن يكون من وراءه خالق مدبر.

وإذا رأى الناظر في أحوال العالم أنه مصنوع، وأن الكائنات الموجودة فيه كلها مجعولة، ورأى ما فيها من اختلاف الأشكال والوظائف والطاقات، أدرك أن كل ذلك حدث بعد أن لم يكن، وأدرك أن تقدم سير العالم دال على أن الحركة والحياة فيه مسبوقة بعدم ضرورة.

فحركة العالم وما فيه من كائنات لا بد أن تكون من محرك، والحياة المسبوقة بعدم فيه لا يمكن أن تأتي من تلك الكائنات نفسها وإنما تأتي من غيرها؛ لأن ذلك كله محدث، والمحدث لا بد له من إحداث، والإحداث هو فعل المحدِث الذي ليس بمخلوق، فإن المحدَث الممكن لا يكون وجوده بنفسه إذ لو كان وجوده بنفسه لكان واجبا بنفسه، ولو كان واجبا بنفسه لم يقبل العدم، وهو قد قبل العدم فليس موجودا بنفسه.

فكل موجود إما أن يكون مفتقرا في وجوده إلى غيره، وإمـــا أن لا يكـــون؛ فـــإن كـــان مفتقـــرا في وجوده إلى غيره لم يكن وجوده بنفسه بل بذلك الغير الذي هو مفتقـــر إليـــه، أو بـــه وبـــذلك الغير، فعلى التقديرين لا يكون وجوده بنفسه.[33]

والعقل الإنساني يشاهد في الكون براهين وأدلة يدرك بها أنـــه لا بـــد لـــه مـــن خـــالق مدبر، وأن من السخافة نفي وجوده بحجة أنـــه لا يمكـــن إدراكـــه بإحـــدى الحـــواس، لأن مـــا يدركه الإنسان من علم ليس منحصرا في وظائف حواسه التي هـــي: الســـمع والبصـــر واللمـــس والشم والذوق، فكم من علوم قطعية لا يمكن للإنســـان أن يباشـــرها بإحـــدى حواســـه، وإنمـــا يصل إليها من خلال ما يستنجه عقله بواسطة حواســـه هـــذه، ومـــن ذلـــك إدراكـــه لوجـــود روحه بما يشاهده من آثارها، فكذلك وجود المخلـــوق المحـــدَث برهـــان قـــاطع علـــى وجـــود الخالق المحدِث.

قيل لأعرابي: ما الدليل على أنَّ للعالم صانعاً ؟

فقال: إنَّ البعرة تدلُ على البعير، وآثار القدم تدلُ على المســـير، وهيكـــل علَّـــوي بهـــذه اللطافـــة ومركز سفلي بهذه الكثافة؛ أما يدلاَّن على الصانع الخبير ؟![34]

---

[33] انظر العقيدة الأصفهانية لشيخ الإسلام (ص 34)

الاستدلال بالأثر على المؤثر طريقة عقلية معروفة، فإن وجـــود الأثـــر دال علـــى وجـــود مؤثر قبله، والعلم بأن المحدَث لا بد له من محدِث علم فطري ضـــروري، ومعلـــوم بـــالفطرة الـــتي فطر الله عليها عباده وبصريح العقل أن الحادث لا يحدث إلا بمحدث أحدثه.

وإن حدوث الحادث بلا محدث أحدثه معلوم البطلان بضـــرورة العقـــل، وهـــذا أمـــر مركـــوز في بني آدم، حتى الصبي لو ضُرب ضربة، فقال: من ضربني ؟

فقيل له: ما ضربك أحد، لم يصدق عقله أن الضربة حدثت من غير فاعل.

ولهذا لو جوز مجوز أن يحدث كتابة أو بناء أو غراس ونحـــو ذلـــك مـــن غـــير محـــدث لـــذلك لكان عند العقلاء إما مجنونا وإما مسفسطا؛ كالمنكر للعلوم البديهية والمعارف الضرورية.

وكما هو معلوم أنه لم يحدث نفسه، فإن كان معـــدوما قبـــل حدوثـــه لم يكـــن شـــيئا، فيمتنع أن يحدث غيره فضلا عن أن يحدث نفسه.[35]

---

[34] انظر تفسير (الكشف والبيان) لأبي إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي (32/3) وزاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي (362/1)

[35] انظر الجواب الصحيح (202/3 – 204)

وفي القرآن: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ () أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴾[36] فهذا تقسيم حاصر؛ يقول: أخلقوا من غير خالق خلقهم ؟ فهذا ممتنع في بداية العقول، أم هم خلقوا أنفسهم ؟ وهذا أشد امتناعا، فعلم أن لهم خالقا خلقهم.

وهذه القضية فطرية بدهية مستقرة في النفوس لا يمكن أحدا إنكارها؛ فلا يمكن صحيح الفطرة أن يدعى وجود حادث بدون محدث أحدثه، ولا يمكنه أن يقول هو أحدث نفسه.[37]

وإن من أكبر البراهين على أن لهذا العالم صانعا: مجيء الأنبياء والرسل بآيات تعجز القدرة البشرية عن مثلها، فإنهم أتوا بكتب تحوي من العلم ما يقصر العقل البشري عن الإحاطة به، وأخبروا أن ما اشتمل عليه كتبهم من علم السوابق واللواحق والغيبيات التي لا تدرك بمحض التخمين أو الخيال، وإنما يأتيهم من خالق الخلق أجمعين.

فلا يتأتى لأحد جحد وجود صانع العالم إلا بعد إثبات كذبهم قاطبة بحجج حاسمة، وذلك محال إلا أن يلجئ مبتغيه إلى المكابرة والمعاندة.

---

[36] سورة الطور، الآيات: 35-36.

[37] انظر الرد على المنطقيين لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (ص 253)

ومن تلك البراهين: فطرة الإنسان؛ حيث أنها – إن لم تتلوث فطرته ببعض المؤثرات الخارجية التي تخرجها عن طبيعتها – تقر بوجود صانع العالم، وذلك حقيقة يتفق عليها جميع الأمم على وجه الأرض، ولا يحاول إنكارها إلا شرذمة انسلخوا عن فطرهم التي خلقوا عليها بما أشربه قلوبهم من فلسفات وخرافات أعمت بصائرهم.

وحتى الأمم التي عبدت الأحجار والأشجار كانت تعتقد أن خالق العالم غير آلهتهم، وإنما يتقربون بعبادتهم إياها إلى الخالق للجميع.

يخبرنا القرآن عن الجاهليين الذين عبدوا الأوثان بأنهم: ﴿ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾[38]

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾[39]

[38] سورة العنكبوت، الآية: 61.

[39] سورة الزمر، الآية 3.

بيان تهافت نظرية التطور[40]:

من أشهر المزاعم التي تنفي وجود صانع للعالم في العصور المتأخرة: ما يعرف بـ "نظرية التطور" للباحث الإنجليزي شارل داروين، ومفادها أن الكائنات الحية تحولت بالتغيرات خلال مرور الزمان، وأن بعضها متولد من بعض بسبب هذا التحول، وليس وجودها من صانع موجد.

هذه النظرية المتهاترة يغني مجرد تصورها عن تكلف إبطالها، فإن جميع البحوث العلمية في أصل الكائنات الحية ونشأتها أدت إلى أنها إنما وجدت فجأة في هذا الكون على صورة تامة، وأن وجودها ليس عن تحول من شكل إلى ما هي عليه اليوم، وكذلك الفترة الانتقالية التحولية التي من الضروري أن تمر بها الكائنات حين تحولها من شكل إلى آخر ليس لها أي أثر علمي، فلا وجود لأثر كائنات مرت بهذه الفترة، وهي ما يطلقون عليها (نماذج التحول البيني)

وهذه الفترة لا بد وأن تستغرق زمنا ليس بالقصير على فرض حدوث تحول في الكائنات، وكافة الحفريات التي تم التنقيب عنها في شتى بقاع العالم أسفرت عن حقيقة هي: أن

---

[40] Charles Darwin, The Origin of Species

الكائنات الحية وجدت دفعة على صورتها الكاملة، وأنها لم تمر بتحول في وجودها، فهي مخلوقة وليست متولدة[41].

وكذلك الثبات المشاهد في هذه الكائنات على ما هي عليه يدحض نظرية تطورها، فالكائنبت الموجودة حاليا مشابهة تماما لأجناسها في قديم الزمان، وما طرأ عليها من تغير إنما يطرأ فجأة، ولا يحدث فيها تحولا ولا تطورا[42]، وداروين كان يعتقد استمرارية هذا التطور حتى في جنس البشر.

ومن المكتشف في علم " بيولوجيا " أن الكائنات الحية مكونة من خلايا، تقرب الخلية الواحدة من 100/1 مليمتر، وهذه الخلايا معقدة الأشكال والتكوين والوظائف، وأنها متحركة لبقائها حية، وهذا التركيب العجيب للخلايا كان مجهولا وقت وجود داروين في القرن التاسع العشر الميلادي، والميكروسكوبات الموجودة آنذاك كانت تعجز عن إظهار هذه الخلايا على صورتها الحقيقية.

---

41 Mark Czarnecki, "The Revival of the Creationist Crusade", p. 56
Derek V. Ager, "The Nature of the Fossil Record" , Proceedings of the British Geological Association, p. 133

42 R. Wesson, Beyond Natural Selection, MIT Press, Cambridge, MA, 1991, p. 45

والميكروسكوبات الإلكترونية إنما ظهرت في منتصف القرن العشرين الميلادي، ومن خلالها تم اكتشاف تعقد بنية هذه الخلايا الحية بصورة جلية.

وهذا كله يفضي بنا إلى أن النظرية الداروينية ليس لها أي أساس علمي صحيح، وإنما بنيت على محض خيالات وأيدلوجية يروج لها من يريد خداع الجمهور وإزاحتهم عن الإيمان بوجود خالق العالم.

الخلاصة:

أن غاية ما عند الذين يكابرون المعقول والمحسوس فينفـــون وجـــود صـــانع العـــالم هـــي الجهـــل الذي أطفأ بصائرهم، وليس معهم أبسط برهان على صـــحة مـــزاعمهم، ومـــن المقـــرر أن عـــدم العلم بالشيء ليس علما بعدمه، وذلك لأن عدم الإدراك جهل وليس بعلـــم، فلـــئن جهلـــوا هـــم وجود الصانع فالعقلاء قاطبة يثبتونه بما يدركون ويشاهدون من البراهين الضرورية عليه.

المطلب الرابع: الغاية من وجود الإنسان في هذه الحياة.

بعد ما تقدم من تقرير أن لهذا الكون خالقا هو الذي خلقه وأحكم نظامه وحركته، فإن العقل السليم ليدرك بما يشاهده من عظمة مع انسجام أمره، وما يحويه من مخلوقات مختلفة مع التئام تام وتكامل بينها، وكون جميع الحركات فيه جارية على قوانين متقنة ومحتمة، أن صانعه وبارئه متصف بقدرة وحكمة تامتين، وأنه أرفع وأجل من أن يصنع ذلك كله بلا حكمة ولا غاية.

ويدرك أن الإنسان هو من عليه مهمة إعمار الأرض وباني الحضارة على وجهها، وهو يستفيد من خيرات الكون لتحقيق مصالحه ونيل لوازم حياته أكثر من غيره، وتكيفه التام مع حركات العالم وكائناته دال على أن كل ذلك مسخر ومهيأ له، وأن وجوده فيه ليس عن عفو ولا صدفة، بل هو أمر مراد من خالق الكون و مدبره.

ولو أن العقل السليم أثبت أن للعالم صانعا إلا أنه صنعه بلا غاية وحكمة من وراء خلقه، لبادر هذا العقل إلى الحكم عليه بالعبث الذي يتتره عنه العقل نفسه فكيف بمن أوجده وأمده ؟

فإن خلق العالم وتدبيره وتسخيره دال على نفوذ مشيئة الخالق وكمال قدرته، وما فيه من الإحكام والإتقان وبديع الصنعة وحسن الخلقة دال على كمال حكمته وعلمه، وما فيه من السعة والعظمة والكثرة دال على سعة ملكه وسلطانه، وما فيه من التخصيصات والأشياء المتضادات دليل على أنه الفعال لما يريد، وما فيه من المنافع والمصالح الدينية والدنيوية دليل على سعة رحمته، وشمول فضله وإحسانه وبديع لطفه وبره، وكل هذا دال عظمة الغاية التي من أجلها وجد ذلك [43] : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[44] وأنه لا يصح من العاقل أن يتوهم لحظة أنه كائن بلا غاية تليق بشأنه وشأن من خلقه ؟

وإلى ذلك الإشارة بقول الله تعالى: ﴿ وَمَا خلقنَا السَّمَوَات وَالْأَرْض وَمَا بَينهمَا لاعبين مَا خلقناهما إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ [45] وقوله تعالى: ﴿ أفحسبتم أَنما خَلَقْنَاكُمْ عَبَثا ﴾[46] فنفي كونه خلق الخلق عبثا؛ أي لعبا بلا حكمة ولا غاية، دال على أنه إنما خلقهم لغاية عظيمة، وأنه لم يجعل الإنسان في المترل الذي جعله فيه ليتركه هملا يتقلب في شهواته كغيره من الحيوانات

---

[43] انظر تفسير السعدي (ص 776)

[44] سورة الجاثية، الآية 13.

[45] سورة الدخان، الآيات: 38-39.

[46] سورة المؤمنون، الآية: 115.

التي قد فضل عليها تفضيلا، ولا يكون له أي صلة بمن خلقه وأكرمه، فإن في مجرد تصور إمكانية ذلك إهانة للإنسان وحطا من كرامته؛ لما يعنيه من عري وجوده من أي معنى ومصلحة مقصودة.

وإذا صدق هذا في الإنسان كان فيما دونه من كائنات من باب أولى؛ لأن وجود الشيء مبني على غايته، فإن عدمت غايته كان وجوده وعدمه سواء، وذلك معلوم لدى كل ذي عقل صحيح، فإن الآلة المصنوعة من أجل تحقيق غاية معينة تتلف بفوات غايتها، والكائن الرفيع الشأن كالإنسان يجب أن تكون لوجوده غاية تناسبه.

وكيف يكون للإنسان كرامة وفضل ثم لا يعدو وجوده سنوات يقضيها في هذا الكون على الاستمتاع بملذات البطن والفرج وتنتهي القضية عند هذا الحد ؟

والله تعالى قد بين في كتابه العزيز هذه الغاية العظيمة والتي من أجلها خلق الإنسان فقال: ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون () ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ﴾[47]

---

[47] سورة الذاريات، الآيات 57-56.

ومعنى الآية: أنه تعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء، ومن عصاه عذبه أشد العذاب، وأخبر أنه غير محتاج إليهم، بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم، فهو خالقهم ورازقهم.[48]

فعلم من هذه الآية أن الغاية من خلق الله الإنسان إنما هي عبادته وحده لا شريك له، وهذه العبادة التي أناط الله بها وجود الإنسان مفهومها أوسع من أن ينحصر في الشعائر التعبدية فحسب؛ بل يشمل كافة الأنماط التي يسلكها الإنسان وجميع توجهاته في حياته، بأن يلتزم في سائر ذلك المنهج الإلهي المستقيم قدر استطاعته، فتكون بذلك حياته كلها بالله ولله.

فالغاية الحميدة التي بها يحصل كمال بني آدم وسعادتهم ونجاتهم، والتي خلق الله الجن والإنس لها، وبعث جميع الرسل يدعون إليها، هي عبادة الله وحده، وهي متضمنة لمعرفته ومحبته، والإنابة إليه والإقبال عليه، والإعراض عما سواه، فإن تمام العبادة متوقف على المعرفة بالله، بل كلما ازداد العبد معرفة لربه، كانت عبادته أكمل، فهذا الذي خلق الله المكلفين لأجله، فما خلقهم لحاجة منه إليهم.

---

[48] أنظر تفسير االقرآن العظيم للحافظ ابن كير (425/7)

فما يريد منهم من رزق وما يريد أن يطعموه، تعالى الله الغني عن الحاجة إلى أحد بوجه من الوجوه، وإنما جميع الخلق فقراء إليه في جميع حوائجهم ومطالبهم الضرورية وغيرها، ولهذا قال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ﴾ أي: كثير الرزق، الذي ما من دابة في الأرض ولا في السماء إلا عليه رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها.

وختم الآية بوصف نفسه بأنه ﴿ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ أي: الذي له القوة والقدرة كلها، الذي أوجد بها الأجرام العظيمة، السفلية والعلوية، وبها تصرف في الظواهر والبواطن، ونفذت مشيئته في جميع البريات، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا يعجزه هارب، ولا يخرج عن سلطانه أحد، ومن قوته أنه أوصل رزقه إلى جميع العالم، ومن قدرته وقوته أنه يبعث الأموات بعد ما مزقهم البلى، وعصفت بترابهم الرياح، وابتلعتهم الطيور والسباع، وتفرقوا وتمزقوا في مهامه القفار، ولجج البحار، فلا يفوته منهم أحد، ويعلم ما تنقص الأرض منهم، فسبحان القوي المتين[49].

[49] انظر تفسير السعدي: (ص 813)

وقفة مع معنى العبادة:

العبادة أصل معناها الذل، يقال: طريق معبد، إذا كان مذللا قد وطئته الأقدام[50].

والعباداة نوعان: عبادة كونية عامة للمؤمن والكافر، والعاصي والمطيع، ومعناها: التذلل والخضوع الكوني الذي لا سبيل لأحد من الخلق إلى الخروج عنه؛ كما في قول الله تعالى: ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ فإن ذلك راجع إلى إحاطة الله بالخلق تدبيرا، وشمول مشيئته لهم تقديرا.

وهذه العبودية الكونية تختلف عن الاختيارية الشرعية التي رُتب عليها الثواب والأجر، وأما هذه فلا مناص لأحد منها، ويُبعد كونها الغاية من خلق الجن والإنس التنصيصُ في الآية على الإنس والجن مع أن العبادة الكونية ليست خاصة بهما.

النوع الثاني: عبادة خاصة اختيارية، والله قد جعل للإنسان قوة الاختيار والإرادة للفعل والكف، ولذلك تعبده الله بحسب ما وهبه من إرادة واختيار.

---

50 انظر (لسان العرب) مادة (عبد) (273/3)

ومفهومها: أنها اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة.[51]

وكما يمكن تفسيرها بـ : التذلل الاختياري لله، والذي يكون بامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

فهذه العبادة التي أرادها الله من عباده إرادة شرعية، وهي الغاية التي خلقهم الله لها؛ من جهة أمر الله ومحبته ورضاه، وقد جعل لهم قدرة حسية ومعنوية يتمكنون بها من القيام بذلك.

[51] العبودية لشيخ الإسلام (44)

أركان هذه العبادة: هي الحب والخوف والرجاء للمعبود.

وقد جمع الله هذه الأركان في قوله: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾[52]

فابتغاء الوسيلة إلى الله هو محبته الداعية إلى التقرب إليه، ثم ذكر بعدها الرجاء والخوف، فهذه طريقة عباده وأوليائه، وربما آل الأمر بمن عبده بالحب المجرد إلى استحلال المحرمات، ويقول: " المحب لا يضره ذنب "، وهذا كذب قطعا منافٍ للإسلام، فالذنوب تضر بالذات لكل أحد كضرر السم للبدن، والذي أوقع في مثل هذه المعاطب هو تجريد الحب عن الخوف.

فإذا اقترن حب العبد بالخوف جمعه على الطريق ورده إليها كلما شرد، فكأن الخوف سوط يضرب به مطيته لئلا تخرج عن الدرب، والرجاء حاد يحدوها يطيب لها السير، والحب قائدها وزمامها الذي يسوقها.

فإذا لم يكن للمطية سوط ولا عصا يردها إذا حادت عن الطريق وتركت تركب التعاسيف خرجت عن الطريق وضلت عنها، فما حفظت حدود الله ومحارمه وتقرب المتقربون إليه بمثل خوفه ورجائه ومحبته، فمتى خلا القلب عن هذه الثلاثة فسد فسادا لا

[52] سورة الإسراء، الآية 57.

يرجى صلاحه أبدا، ومتى ضعف فيه شيء من هذه ضعف إيمانه بحسبه[53].

فالعبادة اسم لما يجمع كمال هذه الثلاثة ونهايتها، وكمال أحدها إذا خلا من الآخرين لا يكون عبادة، ولهذا كانت العبادة لا تصلح إلا لله، وهي وإن كانت منفعتها للعبد والله غني عنها، فهي له من جهة الاستحقاق ومحبته لها ورضاه بها.

[53] بدائع الفوائد لابن القيم (523/3)

عبادة الخالق تعالى هي أعلى مقام بلغه الإنسان:

كمال الإنسان وبلوغه أعلى مقامات رفعته هو في القيام بتحقيق هذه الغاية التي من أجلها خلق، وبذلك يتحرر من عبودية مخلوق مثله أو شهوة نفسه؛ لأن هذه الغاية أعظم الغايات، فمن ارتبط وجوده بها صار عظيما رفيع الشأن؛ بخلاف من يرى أن السر في وجوده لا يتعدى إشباع شهوتي البطن والفرج فحسب، فيا له من مهانة !!

وقد شبه الله تعالى هذا الصنف من البشر بالأنعام في خستها: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾[54] فإنهم لم يتصفوا بصفات المروءة، ولا الصفات الإنسانية، بل نزلوا عنها دركات، وصاروا كالأنعام التي لا عقل لها ولا فضل، بل جل همهم ومقصدهم التمتع بلذات الدنيا وشهواتها، فترى حركاتهم الظاهرة والباطنة دائرة حولها، غير متعدية لها إلى ما فيه الخير والسعادة.[55]

من أجل رفعة مقام العبادة نعت الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم في أكمل أحواله، فقال في الإسراء: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا ﴾[56]

---

[54] سورة محمد، الآية 12.

[55] انظر تفسير السعدي (786)

[56] سورة الإسراء، الآية 1.

وقال في الإيحاء: ﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾[57]

وقال في الدعوة: ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾[58]

وقال في التحدي: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ﴾[59]

والدين كله داخل في معنى العبادة والعبودية، فإن الدين يتضمن معنى الخضوع والذل، يقال: دنته فدان، أي أذللته فذل، ويقال: يدين الله ويدين لله أي يعبد الله ويطيعه ويخضع له، فدين الله عبادته وطاعته والخضوع له.[60]

[57] سورة النجم، الآية 10.
[58] سورة الجن، 19.
[59] سورة البقرة، 23.
[60] انظر العبودية لشيخ الإسلام (ص 48)

المبحث الثاني: أمور يتوقف نجاح الإنسان على التصور الصحيح لها.

وتحته أربعة مطالب:

المطلب الأول: حقيقة الإنسان.

إن أبسط نظرة فاحصة لأحوال الإنسان وما أنيط به من أمر هذا الكون، وأنه ليس في سكانه من هو أصلح منه لتحصيل المصالح الغائية فيه، تفضي بنا إلى القطع بأن الإنسان كائن رفيع الشأن، وأن وجوده ليس عن عفو وصدفة، بل إن لوجوده غاية عظيمة، ولكونه في العالم مآلا ينتقل إليه، وهو مع ذلك يحتاج إلى بعض المعارف ليكون في مسيره على خط مستقيم لا خبط فيه ولا تخليط، فبذلك تتحقق له الرفعة والأفضلية على غيره من الكائنات، وإلا فهو مثلهم أو دونهم.

وقد وصف الله تعالى الذين تاهوا في مهامه الحياة الدنيا، فلم يكسبوا بما أتوا من قوى بشرية المعارف المنيرة لهم الطريق الموصلة إلى النجاح في وجودهم، فوسمهم بقوله: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا

يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾[61]

فالإنسان وسائر الحيوانات متشاركة في قوى الطبيعة الغاذية والنامية والمولدة، ومتشاركة أيضاً في منافع الحواس الخمس الباطنة والظاهرة وفي أحوال التخيل والتفكر والتذكر، وإنما حصل الامتياز بين الإنسان وبين سائر الحيوانات في القوة العقلية والفكرية التي تهديه إلى معرفة الحق لذاته، والخير لأجل العمل به، فإذا فاتت غايات تلك الأدوات لم يعد لوجودها كبير فائدة؛ لأن إدراك الإنسان المعارف التي يحقق بها المصالح ويدفع بها المضار إنما يكون بها، فإذا عطلها الإنسان عن تلك الوظائف السامية استحق الذم من وجه:

- فيذم على تسببه تفويتَ هذه المصالح الضرورية في وجوده؛ كما قال أحدهم:

و لم أرَ في عيوبِ الناسِ شيئاً ... كنقص القادرين على التمامِ

- ويذم من وجه آخر على تيهه وضلاله الناجم عن تفريطه، ولذلك قال: ﴿ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ لأن الحيوانات لا قدرة لها على تحصيل هذه الفضائل، والإنسان أعطي القدرة على تحصيلها، ومن أعرض عن اكتساب الفضائل العظيمة مع القدرة على تحصيلها كان أخص حالاً ممن لم

---

[61] سورة الأعراف، الآية 179.

يكتسبها مع العجز عنها. فلهذا السبب استحق هذا الإنسان الذم وصار شر حالا من الأنعام[62].

وإن معرفة الإنسان حقيقته ضرورية لطلبه الرفعة وحفاظه على كرامته، ومتى جهل حقيقته لزمه ذل يلحقه بعالم البهائم الخسيسة.

أصل الإنسان:

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ () ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ () ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ () ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ () ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾[63]

ذكر الله في هذه الآيات أطوار الآدمي وتنقلاته، من ابتداء خلقه إلى آخر ما يصير إليه، فذكر ابتداء خلق أبي النوع البشري آدم عليه السلام، وأنه ﴿ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴾ أي:

---

[62] انظر تفسير الرازي: (2091/1)

[63] سورة المؤمنون، الآيات 12-16.

قد سلت، وأخذت من جميع الأرض، ولذلك جاء بنوه على قدر الأرض، منهم الطيب والخبيث، وبين ذلك، والسهل والحزن، وبين ذلك.

فأصل الشبر هو آدم عليه السلام، وهو أبوهم وعنه تفرعوا، وذلك هو الحق الذي لا يقبل الامتراء، وأن الإنسان لم يتحول من كائن آخر وجد صدفة على الأرض بلا خالق موجِد.

قال: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ ﴾ أي: جنس الآدميين ﴿ نُطْفَةً ﴾ تخرج من بين الصلب والترائب، فتستقر ﴿ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴾ وهو الرحم، محفوظة من الفساد والريح وغير ذلك.

هذا هو الطور الثاني لخلق البشر، فبعد خلق آدم ومنه حوى، تم خلق من بعدهم في هذا الطور.

﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ ﴾ التي قد استقرت قبل ﴿ عَلَقَةً ﴾ أي: دما أحمر بعد مضي أربعين يوما من النطفة، ﴿ فخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ ﴾ بعد أربعين يوما ﴿ مُضْغَةً ﴾ أي: قطعة لحم صغيرة، بقدر ما يمضغ من صغرها.

﴿ فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ ﴾ اللينة ﴿ عِظَامًا ﴾ صلبة، قد تخللت اللحم، بحسب حاجة البدن إليها، ﴿ فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ﴾ أي: جعلنا اللحم، كسوة للعظام، كما جعلنا العظام، عمادا للحم، وذلك في الأربعين الثالثة، ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾ نفخ فيه الروح، فانتقل من كونه جمادا إلى أن يكون حيوانا حيا، ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾

فخلق الله كله حسن، والإنسان من أحسن مخلوقاته، بل هو أحسنها على الإطلاق، كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾[64] ولهذا كان خواصه أفضل المخلوقات وأكملها.

قال: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ الخلق، ونفخ الروح ﴿ لَمَيِّتُونَ ﴾ في أحد أطواركم وتنقلاتكم ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ فتجازون بأعمالكم، حسنها وسيئها.

فإن لك أيها الإنسان خالقا أحسن خلقك وأكرمك، واستخلفك في الأرض لتقوم بأسمى الغايات وأجلها على الإطلاق.

ليس مما يتصوره العقل السليم أن تصدر هذه التفاصيل الميكروسكوبية، وفي الوقت الذي نزلت فيه، عن غير خالق الإنسان، وهو أعلم من الإنسان بنفسه، وأقدره على تعريفه بها؛ بل ولا يعرف الإنسان نفسه إلا به ابتداء. ولذلك كان في جهل الإنسان بخالقه جهله بحقيقة نفسه: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ﴾[65]

---

[64] سورة التين، الآية 4.

[65] سورة الحشر، الآية 20.

مكانة الإنسان من بين سكان الأرض:

وقال الله عز وجل: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ () وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ () قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ () قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ () وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾[66]

في هؤلاء الآيات ما يلي:

- التنويه بذكر البشر في الملأ الأعلى قبل إيجادهم.
- إخلاف آدم وذريته في الأرض بعد وجود كائنات فيها[67].
- إناطة مهمة تعمير الأرض بآدم وبنيه: ﴿ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾[68]

[66] سورة البقرة، الآيات 30-34.

[67] ذكر غير واحد من أهل التفسير أن الجن سكنوا الأرض قبل إخلاف الله الإنس فيها، وقيل الملائكة.

- إظهار فضل الإنسان بما آتاه الله من علم وكرامة.
- إعلام الإنسان عدوه المعتدي.
- تهيئة الإنسان وتجربته قبل هبوطه على الأرض.

إلى غير ذلك من فوائد هذه الواقعة[69].

فخلافة الإنسان على وجه الأرض قائمة على أسس وأركان صلبة، وليست الغاية منها مغالبة الحيوانات الأرضية ومكاثرتها، بل إنها أرفع شأنا من ذلك، ويحصد الإنسان ما زرعه فيها في مرحلة ما بعد حياته الدنيا.

---

[68] سورة هود، الآية 61.

[69] انظر تفسير الآيات من : جامع البيان للطبري (439/1) ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (216/1) ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (302/1)

المطلب الثاني: مرحلة ما بعد الحياة الدنيا.

إن الحضارة العظيمة التي بناها والمجتمع الضخم الذي ملأ به الأرض، قد لابستهما قضايا عظيمة لا تنقضي على أيدي البشر في هذه الحياة الدنيا؛ بل ولا بد أن يكون لها امتداد وانقضاء بالقسط والعدل بينهم، وذلك في ساحة لا يكون فيها زمام الأمر بيد فرد منهم أو مجموعة، لأن الأمر إذا كان كذلك عاد إلى ما هو عليه في حياتهم الدنيا، وإنما يكون بيد خالقهم ومالكهم الذي جاء بهم إلى الدنيا ليفصل بينهم بالحق: ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾[70]

فالإنسان مسئول عن تصرفاته ومواقفه الاختيارية وما ينتج منها: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾[71]

هذا، وقد تظالم الناس في حياتهم الدنيا وتخاصموا إلى حد يستحيل أن لا يفصل بينهم خالقهم المدبر لأمرهم، قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ

---

[70] سورة الحج، الآية 56.

[71] سورة الإسراء، الآية 36.

وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾[72] فأخبر الله خالق الناس أجمعين عن طوائف أهل الأرض؛ من الذين أوتوا الكتاب، من المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين، ومن المجوس، ومن المشركين أن الله سيجمعهم جميعهم ليوم القيامة، ويفصل بينهم بحكمه العدل، ويجازيهم بأعمالهم التي حفظها وكتبها وشهدها.[73]

هذا هو العدل الذي يرضاه كل ذي عقل؛ أن لا تذهب الحقوق والمظالم هدرا، وكل من يقر بضرورة كون الإنسان خلقه الله لغاية عظيمة، وأن تلك الغاية هي الإحسان في كل شيء، فسيقر بأنه سيجازى ضرورة على إحسانه وإساءته؛ سواء فيما بينه وبين خالقه، أو ما بينه وبين الخلق، وإلا لم تكن لخلقه غاية.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ () إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ

---

[72] سورة الحج، الآية 17.

[73] انظر (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) للشيخ عبد الرحمن السعدي (ص 535)

﴾[74] تأمل ربطه بين خلقه العالم السفلي والعلوي وما فيهما وبين الأمر بعبادته وحده لا شريك؛ ليدل على أن عبادته هي الحق الذي من أجله خلق الناس وسخر لهم كل ما في العالم، ثم عقب بذكر رجوع الخلق إليه للقضاء بينهم لمجازاتهم على أعمالهم لأنهم مسئولون عنها.

وقد اتفق جميع أهل القبلة على تنابذ فرقهم على القول بالبعث في القيامة، وعلى تكفير من أنكر ذلك، ومعناه أن لمكث الناس في دار الابتلاء التي هي الدنيا أمدا يعلمه الله تعالى، فإذا انتهى ذلك الأمد مات كل من في الأرض، ثم يحيي الله عز و جل كل من مات مذ خلق الله عز و جل الحيوان إلى انقضاء الأجل المذكور، ورد أرواحهم التي كانت بأعيانها، وجمعهم في موقف واحد، وحاسبهم عن جميع أعمالهم، ووفاهم جزاءهم؛ ففريق من الجن والإنس في الجنة، وفريق في السعير[75].

فبمسير الناس إلى خالقهم تتم الغاية من وجودهم، وما يستوجبه نجاحهم من سعادة تكون في الحياة الآخرة التي يقضونها إما في النعيم الخالد وإلا في العذاب المؤبد. وقد بنا الله براهين المعاد في القرآن على ثلاثة أصول:

---

[74] سورة يونس، الآية 4.

[75] انظر الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم الظاهري (66/4)

أحدها: تقرير كمال علم الرب سبحانه؛ كما قال في جواب من قال: (مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ) ؟

والجواب: ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾[76]

والثاني: تقرير كمال قدرته؛ كقوله: وقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[77] فهذا استدلال منه تعالى على الإعادة بعد الموت بما هو أبلغ منها، وهو أنه الذي خلق السماوات والأرض على عظمهما وسعتهما وإتقان خلقهما من دون أن يكترث بذلك، و لم يعي بخلقهن، فكيف تعجزه إعادتكم بعد موتكم وهو على كل شيء قدير؟[78]

---

[76] سورة يس، الآية 79.
[77] سورة الأحقاف، الآية 33.
[78] انظر تفسير السعدي (ص 783)

ويجمع سبحانه بين الأمرين كما في قوله: ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾[79] فإن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس، وإعادة الله للأموات، فرد من أفراد آثار خلقه، وهو بقدرته لا يستعصي عليه مخلوق أراد خلقه.

الثالث: كمال حكمة الله وعدله؛ كقوله: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴾[80] فأخبر تعالى عن كمال قدرته وتمام حكمته وأنه ما خلق السماوات والأرض لعبا ولا لهوا أو سدى من غير فائدة، وأنه ما خلقهما إلا بالحق أي: نفس خلقهما بالحق وخلقهما مشتمل على الحق، وأنه أوجدهما ليعبدوه وحده لا شريك له وليأمر العباد وينهاهم ويثيبهم ويعاقبهم[81].

وقوله: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ﴾[82]

وقوله: ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾[83]

---

[79] سورة يس، الآية 81.

[80] سورة الدخان، الآية 38.

[81] انظر تفسير السعدي (ص 774)

[82] سورة ص، الآية 27.

وقوله: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ () فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾[84]

وقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ () إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾[85]

وعدل الخالق جل وعلا يستوجب أن يقضي بين الخلق فيما كانوا فيه يختلفون، ويوفي إليهم أعمالهم الصالحة والطالحة، قال الله عز وجل: ﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ () وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾[86]

قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾[87]

---

[83] سورة القيامة، الآية 36.

[84] سورة المؤمنون، الآيات 115-116.

[85] سورة الحجر، الآيات 85-86.

[86] سورة الأعراف، الآيات 8-9.

[87] سورة الأنبياء، الآية 47.

فإضاعة أعمال العباد وإعدام آثارها ونتائجها ليصبح الإنسان ساذجا منها؛ لا له ولا عليه منه من شيء، فهو عبث يرفض العقل السليم نسبته إلى خالق الأرض والسموات.

ولهذا كان الصواب أن المعاد معلوم بالعقل مع الشرع، وأن كمال الرب تعالى وكمال أسمائه وصفاته تقتضيه وتوجبه، وأنه متره عما يقوله منكروه، كما يتره كماله عن سائر العيوب والنقائص.[88]

ومن البراهين الضرورية التي أقامها الله على البعث بعد الموت: إحياء الأرض بعد موتها، فقال عز وجل: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[89]

فدل سبحانه عباده بما أراهم من الإحياء الذي تحققوه وشاهدوه على الإحياء الذي استبعدوه، وذلك قياس إحياء على إحياء واعتبار الشيء بنظيره والعلة الموجبة هي عموم قدرته سبحانه وكمال حكمته[90].

---

[88] انظر كتاب الفوائد لابن القيم (ص 6-7)

[89] سورة فصلت، الآية 39.

[90] إعلام الموقعين (139/1)

وجعل الله ذلك آية ودليلا على خمسة مطالب:

أحدها: وجود الصانع، وأنه الحق المبين، وذلك يستلزم إثبات صفات كماله وقدرته وإرادته وحياته وعلمه وحكمته ورحمته وأفعاله.

الثاني: أنه يحي الموتى.

الثالث: عموم قدرته على كل شيء.

الرابع: إتيان الساعة وأنه لا ريب فيها.

الخامس: أنه يخرج الموتى من القبور كما أخرج النبات من الأرض.

وقد كرر سبحانه ذكر هذا الدليل في كتابه مرارا لصحة مقدماته ووضوح دلالته وقرب تناوله وبعده من كل معارضة وشبهة[91].

ومنها قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾[92]

فرد عليهم سبحانه ردا يتضمن الدليل القاطع على قدرته على إعادتهم خلقا جديدا، فقال: ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا () أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾[93]

[91] إعلام الموقعين (145/1)
[92] سورة الإسراء، الآية 49.
[93] سورة الإسراء، الآيات 50 – 51.

فلما استبعدوا أن يعيدهم الله خلقا جديدا بعد أن صاروا عظاما ورفاتا، قيل لهم: ﴿ كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر في صدوركم ﴾ سواء كان الموت أو السماء أو الأرض أو أي خلق استعظمتموه وكبر في صدوركم.

ومضمون الدليل أنكم مربوبون مخلوقون مقهورون على ما يشاء خالقكم وأنتم لا تقدرون على تغيير أحوالكم من خلقة إلى خلقة لا تقبل الاضمحلال كالحجارة والحديد، ومع ذلك فلو كنتم على هذه الخلقة من القوة والشدة لنفذت أحكامي فيكم وقدرتي ومشيئتي و لم تسبقوني و لم تفوتوني.

وهذا من أبلغ البراهين القاطعة التي لا تعرض فيها شبهة البتة؛ بل لا تجد العقول السليمة عن الإذعان والانقياد لها بدا، فلما علم القوم صحة هذا البرهان وأنه ضروري انتقلوا إلى المطالبة بمن يعيدهم فقالوا: ﴿ من يعيدنا ﴾ وهذا سواء كان سؤالا منهم عن تعيين المعيد أو إنكارا منهم له فهو من أقبح التعنت وأبينه، ولهذا كان جوابه: ﴿ قل الذي فطركم أول مرة ﴾

ولما علم القوم أن هذا جواب قاطع انتقلوا إلى باب آخر من التعنت وهو السؤال عن وقت هذه الإعادة، فأنغضوا إليه رءوسهم وقالوا: ﴿ متى هو ﴾ ؟ فقال تعالى: ﴿ قل عسى أن يكون قريبا ﴾

فليتأمل اللبيب لطف موقع هذا الدليل واستلزامه لمدلولـه استـلزاما لا محيـد عنـه، ومـا تضمنه من السؤالات والجواب عنها أبلغ جواب وأصحه وأوضحه[94].

في هذه الحياة الآخرة يجني الإنسان ثمار ما زرعه في حياته الـدنيا، وهـي محـط رحلـه وامتـداد عيشه الدنيوي، ويستحق من النعيم بحسب نجاحـه في تحقيـق الغايـة مـن وجـوده في الـدنيا، وكما يستحق من العقاب بحسب فشله وإخفاقه في ذلك.

---

[94] انظر إعلام الموقعين (1/143-144)

وقفة مع نعيم الجنة والعذاب النار في الحياة الآخرة:

إن من فضل الله على عباده أن أعد لهم دار كرامة وسعادة، وهي الجنة، وكما أعد دار شقاوة وتعاسة لمن عصاه وهي النار.

وإنهم يستحقون إحدى الدارين بأعمالهم التي جعلها الله سببا إليها، وعلى ذلك ابتلاهم في دار الدنيا: ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[95] ولقد رغب الله عباده في دار السعادة التي يسكنها من رضي عنهم من عباده، ورهبهم عن دار التعاسة التي يدخلها من استحق منهم غضبه وسخطه؛ مع تفضله العظيم ورحمته بهم في تيسير أسباب دخول الجنة والنجاة من النار، فمن مظاهر هذا التيسير:

- أن بين لهم كل خير ينال به رحمته المستوجبة لهم الفلاح.
- أن حذرهم من كل شر يوجب لهم الخسارة والشقاء.

[95] سورة غافر، الآية 40.

- أنه كلفهم من الأعمال – فعلا أو تركا – ما كان بقدر طاقتهم ووسعهم: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾[96] ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾[97]

- ومنها أن ضاعف لهم جزاء الخيرات، وقصر جزاء السيئات على قدرها: ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[98]

ويشرحها قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك؛ فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، فإن هم بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، فإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة، ولا يهلك على الله إلا هالك))[99]

- ومنها أن يمحو سيئاتهم بأسباب كثيرة متنوعة، ويغفرها لهم.

---

[96] التغابن، الآية 16.

[97] سورة البقرة، الآية 286.

[98] سورة الأنعام، الآية 160.

[99] أخرجه البخاري في صحيحه: باب من هم بحسنة أو بسيئة، رقم (6491) ومسلم في صحيحه: باب إذا هم العبد بحسنة...، رقم (59)

- أنه يعفو لمن استحق منهم العذاب في الآخرة عن طريق الشفاعة الصحيحة أو العفو منه ابتداء.

ومن الأخطاء التي تقع من بعض الجهلة ظنهم أن الجنة لا تعدو الأكل والشرب واللباس والنكاح والسماع ونحو ذلك؛ مما فيه استمتاع بالمخلوقات، حتى احتقر بعضهم شأنها واستضعف كونها غاية تتعلق بها همة الإنسان في عبادته لربه.

والتحقيق أن الجنة إنما يدخلها أهلها بنيل رضا الله وزوال غضبه عنهم، وهي دار كرامته، وهي الدار الجامعة لكل أنواع النعم، وأعلى ما فيها النظر إلى وجه الله وهو من النعم التي لا تنال إلا في الجنة؛ كما تضافرت به النصوص. وكذلك أهل النار فإنهم محجوبون عن ربهم متلبسون سخطه وغضبه ثم يدخلون النار يعذبون فيها بأنواع الرذائل التي تتألم بها النفس كالجسد[100].

[100] انظر الاستقامة لشيخ الإسلام (ص 66)

قال الله عز وجل في وصف عذابهم: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴾[101] فاجتماع المقتين يوجب لهم حسرة تتألم بها الروح أشد من ألم الجسم.

ويقول لهم ربهم وهم معذبون في النار: ﴿ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ () قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ () رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾[102]

وكذلك نعيم الجنة أبلغ من أن يكون مقصورا على الجسم دون الروح، بل ما فيها من زوال المنغصات وأسباب الحزن والهم، وما فيها من قرة الأعين، فإن ذلك ينال روح الإنسان كما يتلذذ به جسمه. ولذا فضل الله هذه الدار على الدنيا وبين كمالها بقوله: ﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾[103]

---

[101] سورة غافر، الآية 10.

[102] سورة المؤمنون، الآية 104-107.

[103] العنكبوت، الآية 64.

فلو أنها حياة لا تعدو الأكل والشرب ولذة البدن لما فضلها على الدنيا؛ بل تكون مثلها في كونها لعبا ولهوا، بل فضلت عليها بما فيها من كمال الحياة الروحية والجسمية، ولا مطمع في ذلك في الدار الدنيا.

وهذه الحياة الكاملة هي التي يبذل الإنسان العاقل حياته الحقيرة لتحصيلها غدا: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾[104] فإن القلوب تلهو بها، وتلعب بها الأبدان، بسبب ما جعل اللّه فيها من الزينة واللذات، والشهوات الخالبة للقلوب المعرضة، الباهجة للعيون الغافلة، المفرحة للنفوس المبطلة الباطلة، ثم تزول سريعا، وتنقضي جميعا، ولم يحصل منها محبها إلا على الندم والحسرة والخسران.

وأما الدار الآخرة، فإنها دار (الحيوان) أي: الحياة الكاملة، التي من لوازمها، أن تكون أبدان أهلها في غاية القوة، وقواهم في غاية الشدة، لأنها أبدان وقوى خلقت للحياة، وأن يكون موجودا فيها كل ما تكمل به حياة النفس والجسم، وتتم به اللذات؛ من مفرحات القلوب، وشهوات الأبدان، فوصفها بالكمال شاملا لجانب النفس والجسم، وليس لأحدهما فقد دون الآخر[105].

---

[104] سورة التوبة، آية 111.

[105] تفسير السعدي (ص 635)

ولهذا لما سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن أهل الجنة هل ينامون، قال ((أخو الموت وأهل الجنة لا ينامون)) لم يكن ذلك كذلك إلا لكمال حياتهم هناك، فانتفى به صفات النقص عنها.

وإذا اعترض أحد على هذا التقرير بأن ما قيل في أهل الجنة من انتفاء الموت عنه صادق كذلك على أهل النار، فلا يكون لهم فيه أي فضل.

فيجاب عن الاعتراض بأن نفي الموت كافٍ في الدلالة على كمال حياة الجميع، ثم لما كانت حياة أهل الجنة على كمالها في النعيم الخالد، فإنه كمال من أجل التنعم غايته، وكذلك حياة أهل النار على كمالها في العذاب الأبد، فهو كمال من أجل بلوغ العذاب غايته. تحصَّل من ذلك المقصود، وهو بيان أن ما يكون في الآخرة من نعيم وعذاب لا يقصر على الأجسام فقط دون الأنفس؛ بل النفس تتنعم و تتألم بذلك كشأن الجسم.

والواحد من هؤلاء لو جاع في الدنيا أياما، أو ألقي في بعض عذابها طار عقله وخرج من قلبه كل محبة كان يدعيه لربه، فلا طاقة لمخلوق بعذاب الخالق ولا غنى به عن رحمته.

المطلب الثالث: الوسيلة التي يحقق بها الإنسان الغاية من وجوده.

إن العقل البشري الصرف عاجز عن الاهتداء إلى الطريق الموصل له إلى تحقيق الغاية من وجوده، فالعقل آلة لا بد أن تجتمع لها قوتان لتشتغل على الوجه الصحيح؛ قوة داخلية وقوة خارجية، فإنه كالآلة المبصرة؛ إذا انطفأ نورها الداخلي لم تبصر وإن قوي النور الخارجي، وكذلك العكس.

والقوة الخارجية للعقل هي نور الوحي الإلهي الذي أنزله الله على عباده بواسطة الرسل، فإنهم بدونه في ظلمات الجهل يعمهون، وكلما انخفض نور الوحي في قوم غلب عليهم الجهل والتيه، فينجرون وراء دواعي الشهوة والهوى بلا تمييز بين الصالح من الأفعال والطالح.

وبذلك يأخذ الإنسان في هبوط يصل به إلى حد التذلل للحجر والشجر، فينخلع عن صفته التي بها فضل على غيره إلى صفة الحقارة والمهانة، وينقلب عن كونه مفضلا ليكون مفضولا.

وقد أخبر الله في كتابه أن الذي أوجب للضالين من عباده ضلالهم أنه لم يجعل لهم نورا يستنيرون به الطريق، بل تركهم في الظلمة التي خلقوا فيها فلم يخرجهم منها إلى نور الهداية.

فإنه سبحانه ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور، فمن أراد هدايته جعل له نورا وجوديا يحي به قلبه وروحه كما يحي بدنه بالروح التي ينفخها، فهما حياتان: حياة البدن بالروح، وحياة الروح والقلب بالنور، ولهذا سمى سبحانه الوحي روحا؛ لتوقف الحياة الحقيقية عليه كما قال تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾[106]

وقال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾[107]

فجعل وحيه روحا ونورا، فمن لم يحيه بهذا الروح فهو ميت، ومن لم يجعل له نورا منه فهو في الظلمات ما له من نور، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ

---

[106] سورة النحل، الآية 2.

[107] سورة الشورى، الآية 52.

نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[108]

﴿ أَوَمَنْ كَانَ ﴾ من قبل هداية الله له ﴿ مَيْتًا ﴾ في ظلمات الكفر، والجهل، والمعاصي، ﴿ فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ بنور العلم والإيمان والطاعة، فصار يمشي بين الناس في النور، متبصرا في أموره، مهتديا لسبيله، عارفا للخير مؤثرا له، مجتهدا في تنفيذه في نفسه وغيره، عارفا بالشر مبغضا له، مجتهدا في تركه وإزالته عن نفسه وعن غيره.

أفيستوي هذا بمن هو في الظلمات؛ ظلمات الجهل والغي، والكفر والمعاصي ﴿ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ قد التبست عليه الطرق، وأظلمت عليه المسالك، فحضره الهم والغم والحزن والشقاء.

فنبه تعالى العقول بما تدركه وتعرفه، أنه لا يستوي هذا ولا هذا كما لا يستوي الليل والنهار، والضياء والظلمة، والأحياء والأموات.

فكأنه قيل: فكيف يؤثر من له أدنى مسكة من عقل، أن يكون بهذه الحالة، وأن يبقى في الظلمات متحيرا: فأجاب بأنه ﴿ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

[108] سورة الأنعام، الآية 122.

فلم يزل الشيطان يحسن لهم أعمالهم، ويزينـــها في قلـــوبهم، حـــتى استحســـنوها ورأوهـــا حقـــا. وصار ذلك عقيدة في قلوبهم، وصفة راسخة ملازمة لهم، فلـــذلك رضـــوا بمـــا هـــم عليـــه مـــن الشر والقبائح.

وهؤلاء الذين في الظلمات يعمهون، وفي باطلهم يترددون[109].

فإن الله تعالى خلق الإنسان على فطـــرة ســـليمة تقـــر بخالقهـــا وتطلبـــه، ومنحـــه الله في ذاته وسائل تمكنه من الكسب العلمي والعملي، وأمده بالمادة التي يتغـــذى بهـــا عناصـــره الثلاثـــة: الروح والعقل والجسد.

قال الله تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَـــعْفٍ قُـــوَّةً ثُـــمَّ جَعَـــلَ مِـــنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾

فالضعف الأول الذي يقارن الإنسان إلى الوجود إنمـــا يـــزول عـــن عناصـــره الثلاثـــة بتربيتـــها وتنميتها إلى الأكمل: الروح والعقل والجســـد، ثم إن الضـــعف ســـيعاوده في المراحـــل الأخـــيرة من حياته؛ إلا أنه ينال العقل والجسد ويبقى الروح على ما على صلاحه الذي ربي عليه.

[109] انظر تفسير السعدي (ص 271)

قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه؛ كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء)) [110]

الفطرة هنا هي السلامة من الاعتقادات الباطلة، والقبول للعقائد الصحيحة، ولا يلزم من كونهم مولودين على الفطرة أن يكونوا حين الولادة معتقدين للإسلام بالفعل، فإن الله أخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئا، والعقل لا يستقل بإدراك تفاصيل ما جاءت به الشريعة فإذا جاءت بها الشريعة اهتدى العقل، ولكن سلامة القلب وقبوله وإرادته للحق: الذي هو الإسلام؛ بحيث لو ترك من غير مغير لما كان إلا مسلما.

وهذه القوة العلمية العملية التي تقتضي بذاتها الإسلام ما لم يمنعها مانع: هي فطرة الله التي فطر الناس عليها[111].

وفي الحديث أن الأصل في الإنسان هو السلامة؛ إلا أن في نفسه قابلية الشر يحتاج إلى دفعها، لتستفيد النفس من الفطرة التي خلقت عليها.

---

[110] متفق عليه.

[111] انظر مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام (247/4)

إذا تقررت شدة حاجة الإنسان إلى النور الإلهي في تحقيقه الغاية من وجوده، وهو الذي لا سبيل له إلى الفلاح والنجاح في الدارين بدونه، نرجع إلى سؤالنا الذي فتحنا به هذه الجولة: لماذا الإسلام ؟

المبحث الثالث: لماذا الإسلام ؟

وتحته مطلبان:

المطلب الأول: تعريف موجز بالإسلام.

الإسلام: هو الاستسلام لله وحده. وذلك بالمحبة والتعظيم في القلب، والانقياد التام لله في الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

والإسلام يجمع معنيين:

أحدهما الاستسلام والانقياد، فلا يكون متكبراً.

والثاني: الإخلاص، من قوله تعالى: ﴿ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ ﴾ فلا يكون مشركاً، وهو أن يسلم العبد لله رب العالمين.

هذا هو المفهوم الخاص للإسلام الذين لا يقبل الله دينا سواه، وبه يستسلم المؤمن لله بقلبه وقالبه.

والمفهوم العام للإسلام يستغرق جميع الخلق؛ المؤمن منهم والكافر، وهو بمعنى خضوعهم لأوامر ربهم الكونية طوعا أو كرها، وحتى الكافر مستسلم لله كرها؛ لأنه تحت التسخير

والقهر والسلطان العظيم، الذي لا يخالف ولا يمانع، قال تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾[112]

والإسلام يستعمل لازماً معدى بحرف اللام، مثل ما ذكر في هذه الآيات ، ومثل قوله تعالى: ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ ﴾[113]

ويستعمل متعدياً مقروناً بالإحسان، كقوله تعالى: ﴿ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[114]

وقوله: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾[115]

فقد أنكر أن يكون دين أحسن من هذا الدين، وهو إسلام الوجه لله مع الإحسان، وأخبر أن كل من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

---

[112] سورة آل عمران، الآية 83.

[113] سورة الزمر، الآية 54.

[114] سورة البقرة، الآية 112.

[115] سورة النساء، الآية 125.

وهذان الوصفان – وهما إسلام الوجـــه لله، والإحســـان – همـــا الأصـــلان المتقـــدمان ، وهمـــا: كون العمل خالصاً لله ، صواباً موافقاً للســـنة والشـــريعة ، وذلـــك لأن إســـلام الوجـــه لله هـــو متضمن للقصد والنية لله[116].

ولهذا كان الباب إلى الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله، وهي متضـــمنة عبـــادة الله وحـــده وتـــرك عبادة ما سواه.

وشهادة أن محمدا رسول الله؛ لأنه الذي بلـــغ بـــالأقوال والأفعـــال تشـــريعه عـــن الله، فصـــحة الإسلام متوقفة على متابعة تعليمه وتبليغه صلى الله عليه وسلم.

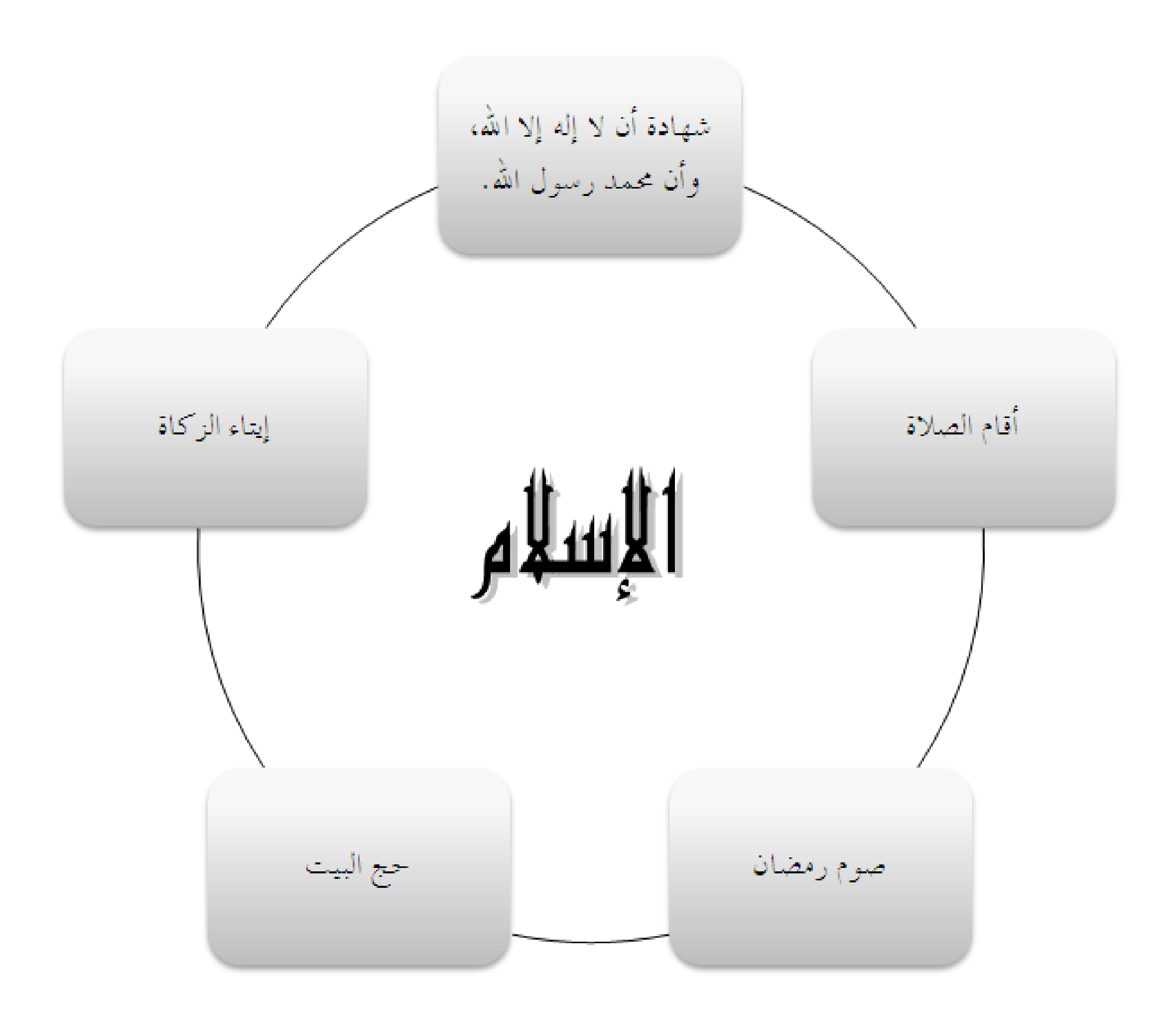
والإسلام كدين ينتظم جميع أعمال الدين على ثلاث مراتب:

---

116 انظر رسالة شيخ الإسلام (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)

المرتبة الأولى: الإسلام.

وهو مبني على خمسة أركان:



هذا الإسلام هو الذي يعد مرتبة من مراتب الدين المسمى بـــ (الإسلام)

الركن الأول: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله.

ولا تتم وتصح هذه الشهادة إلا بثلاثة أمور:

الأول: العلم بمضمون هذه الشهادة؛ لأن الشاهد لا يشهد على ما ما يجهله، قال تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ قيد الشهادة بحال كونهم يعلمون لأن الشهادة عن غير علم بالمشهود به لا يعول عليها، ومن شرط سائر الشهادات في الحقوق وغيرها أن يكون الشاهد عالما بها[117].

الثاني: الإقرار بما تضمنته هذه الشهادة من معانٍ، وإلا يكون الشاهد كاذبا على شهادته، قال تعالى: ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ إنما كذبهم الله على تفوههم بهذه الشهادة لأنها ليست مقرة في قلوبهم، والشهادة الحقة إنما هي المنبثقة من القلب.

الثالث: النطق والتفوه بهذه الشهادة علنا؛ حتى يعلن بذلك قبوله لها ولما هي باب إليه وهو الإسلام.

---

[117] انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (106/16)

معنى (لا إله إلا الله) الجملة متكونة من ركنين: (لا إله) الإله هو المألوه المعبود بحق. ففي هذا الركن نفي وجود معبودٍ بحق غير الله، ولا يعكر على هذا النفي أن يكون هناك ما يعبد ويتخذ إلهاً من دون الله؛ لأن ذلك لا يصيره إلها حقا وإنما هو إله باطل وإن سمي " إلهاً " فإنما هو مجرد اسم عار من كل معاني المسمى. قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾[118] فالله هو الإله الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له؛ لأنه ذو السلطان العظيم، الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وكل شيء فقير إليه، ذليل لديه، وكل ما عبد من دونه تعالى من الأصنام والأنداد والأوثان، فهو باطل؛ لأنه لا يملك ضرا ولا نفعا[119].

فالركن الأول يستوجب تخلية القلب من تأليه كل من سوى الله قبل الانتقال إلى الركن الثاني: (إلا الله)

وهو إثبات الإلهية لله وحده لا شريك له.

---

[118] سورة الحج، الآية 62.

[119] انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير: (449/5)

وقد جمع الله بين هذين الركين في غيرما آيـــة في القـــرآن: ﴿ فَمَـــنْ يَكْفُـــرْ بِالطَّـــاغُوتِ وَيُـــؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا ﴾[120]

فإن الشهادة أن لا إله إلا الله تتضمن الكفر بالطـــاغوت – وهـــو كـــل مـــا عبـــد مـــن دون الله تعالى من بشر أو حجر أو شجر أو هوى أو شهوة – وبغضـــه والـــبراءة منـــه، فمـــن قالهـــا و لم يكفر بما يعبد من دون الله لم يأت بهذه الكلمة.

[120] سورة البقرة، الآية 256.

مكانة توحيد الخالق بالعبادة:

توحيد الله تعالى بالعبادة وحده لا شريك له هو أصل دين الإسلام، وهو أصل دين جميع الرسل وأول دعوهم، وأول منازل الطريق، وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله عز وجل، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾[121]

وقد كثرت وتنوعت في القرآن الحجج القطعية على توحيد الله، بل القرآن كل في تقرير التوحيد؛ لأنه إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله فهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع كل ما يعبد من دونه فهو التوحيد الإرادي الطلبي، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته في نهيه وأمره فهي حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة فهو جزاء توحيده، وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يحل بهم في العقبى من العذاب فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد.

فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم[122].

---

[121] الأنبياء، الآية 25.

[122] انظر مدارج السالكين لابن القيم الجوزية (450/3)

ومن أبين الحجج التي أقامها القرآن على التوحيد قول الله تعالى: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾[123]

فإنه برهان باهر، بهذا اللفظ الوجيز الظاهر، فإن الإله الحق لا بد أن يكون خالقا فاعلا، يوصل إلى عابده النفع ويدفع عنه الضر، فلو كان معه سبحانه إله آخر يشركه في ملكه، لكان له خلق وفعل، وحينئذ فلا يرضى تلك الشركة، بل إن قدر على قهر ذلك الشريك وتفرده بالملك والإلهية دونه فعل، وإن لم يقدر على ذلك انفرد بخلقه وذهب بذلك الخلق، كما ينفرد ملوك الدنيا بعضهم عن بعض بملكه، إذا لم يقدر المنفرد منهم على قهر الآخر والعلو عليه، فلا بد من أحد ثلاثة أمور:

- إما أن يذهب كل إله بخلقه وسلطانه.
- وإما أن يعلو بعضهم على بعض.
- وإما أن يكونوا تحت قهر مَلكٍ واحد يتصرف فيهم كيف يشاء، ولا يتصرفون فيه، بل يكون وحده هو الإله، وهم العبيد المربوبون المقهورون من كل وجه.

وانتظام أمر العالم كله وإحكام أمره، من أدل دليل على أن مدبره إله واحد، وملك واحد، ورب واحد، لا إله للخلق غيره، ولا رب لهم سواه، كما قد دل دليل التمانع[124] على أن

[123] سورة المؤمنون، الآية 91.

خالق العالم واحد، لا رب غيره ولا إله سواه، فذلك تمانع في الفعل والإيجاد، وهذا تمانع في العبادة والإلهية، فكما يستحيل أن يكون للعالم ربان خالقان متكافئان، كذلك يستحيل أن يكون لهم إلهان معبودان.

فالعلم بأن وجود العالم عن صانعين متماثلين ممتنع لذاته، مستقر في الفطر معلوم بصريح العقل بطلانه، فكذا تبطل إلهية اثنين، فالآية الكريمة موافقة لما ثبت واستقر في الفطر من توحيد الربوبية، دالة مثبتة مستلزمة لتوحيد الإلهية[125].

هذا التوحيد هو مفتاح السعادة في الدارين، وضده الذي هو الشرك هو أكبر الظلم؛ لأن الظلم وضع الشيء في غير محله، والعبادة التي هي حق لله عز وجل لا يحل صرفها لغيره؛ لأن كل ما سواه مخلوق مربوب له سبحانه، قال تعالى: ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ

---

[124] معنى هذا التمانع: أنه لو وقع شيء بإيجاد الغير، وفرضنا تعلق قدرة الله تعالى وإرادته بضد ذلك الشيء في حال إيجاد الغير ذلك الشيء، كحركة جسم وسكونه في زمان بعينه، فإن وقع الأمر؛ إن جميعا لزم اجتماع الضدين، وإن لم يقع شيء منهما لزم عجز الباري تعالى، وتخلف المعلول عن تمام العلة، وخلو الجسم عن الحركة والسكون، وإن وقع أحدهما لزم الترجح بلا مرجح. شرح المقاصد في علم الكلام: (86/2)

[125] انظر شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (87/1)

كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَــوْمٍ يَعْقِلُــونَ ﴾[126] هــذا مثــل ضــربه الله تعــالى للمشركين به، العابدين معه غيره، الجاعلين له شركاء وهــم مــع ذلــك معترفــون أن شــركاءه من الأصنام والأنداد عبيد له، ملك له، كما كانوا في تلبيتهم يقولــون: لبيــك لا شــريك لــك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك.

فضرب لهم مثلا من أنفسهم يشهدونه ويفهمونه من أنفســكم؛ حيــث لا يرتضــى أحــد منــهم أن يكون عبده شريكا له في ماله، فهو وهو فيه علــى الســواء، يخــافون أن يقــاسموهم أمــوالهم وأهلهم وحققهم الخاصة، فكما تأبون ذلــك لأنفســهم فــلا تجعلــوا لله المتفــرد بخلــق الخلــق وملكه شريكا في حقوقه الخاصة[127].

---

[126] سورة الروم، الآية 28.

[127] انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير (312/6)

شهادة أن محمد رسول الله:

معنى شهادة أن محمداً رسول الله هو: الإيمان واليقين التام بأن محمداً ﷺ عبد الله ورسوله، أرسله إلى الجن والإنس كافة، وأنه خاتم الأنبياء والرسل. وأنه ﷺ عبد مقرب عند الله ليس له من خصائص الألوهية شيء، واتباعه ﷺ وتعظيم أمره ونهيه ولزوم سنته قولا وعملاً واعتقاداً.

وهذه الشهادة تقتضي على شاهدها: طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع.

قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾[128] ، وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾[129] ، وقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾[130]

---

[128] سورة الأعراف، الآية: 158.

[129] سورة سبأ، الآية: 28.

[130] سورة الأحزاب، الآية: 40.

ويشمل ذلك أموراً:

أولاً: الإقرار برسالته واعتقادها باطناً في القلب.

ثانياً: النطق بذلك والاعتراف به ظاهراً باللسان.

ثالثاً: متابعته صلى الله عليه وسلم على ما علم وبينه من شرع الله، وطاعته فيما به أمر، أو نهى عنه وزجر.

قال تعالى: ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[131]

رابعاً: تصديقه صلى الله عليه وسلم في كل ما أخبر به.

خامساً: محبته صلى الله عليه وسلم أشد من محبة النفس والمال والولد والوالد والناس أجمعين، لأنه رسول الله وأن محبته من محبة الله وفي الله.

وحقيقة محبته هي إتباعه بطاعة أوامره واجتناب نواهيه ونصرته وموالاته.

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾[132]

---

[131] سورة الأعراف، الآية 158.

وأسباب المحبة راجعة إلى هذه الأمور الثلاثة:

- محبة الشيء بسبب الاستلذاذ بإدراكه؛ كحب الصور الجميلة والأصوات الحسنة والأطعمة والأشربة الذيذة؛ مما يميل إليه الطبع السليم مائل إليها لموافقته له.
- محبة الشيء بسبب الاستلذاذ بالإدراك بحاسة العقل والقلب معاني باطنة شريفة فيه؛ كحب الصالحين والعلماء وأهل المعروف المأثور عنهم السير الجميلة والأفعال الحسنة، فإن طبع الإنسان مائل إلى الشغف بأمثال هؤلاء، وقد يبلغ به الانتصار بقوم لقوم إلى تحمل المشاق والضرر الكبير.
- محبة الشيء لموافقته له من جهة إحسانه له وإنعامه عليه، فقد جبلت النفوس على حب من أحسن إليها.

وهذه المعاني الثلاثة الموجبة للمحبة كلها مجتمعة في حق النبي صلى الله عليه وسلم.

أما الأول والثاني: فلجمال صورته والظاهر، وكمال أخلاقه والباطن[133].

فقد جميع الله له جمال الظاهر والباطن عليه الصلاة والسلام، وكان لذلك أثر قوي في شدة محبة الناس له، ولا يزال الأمر كذلك.

---

[132] سورة آل عمران، الآية

[133] انظر : الشمائل المحمدية والخصائل المصطفوية لأبي عيسى الترمذي، وإمتاع الأسماع لتقى الدين المقريزى والشمائل الشريفة لجلال الدين السيوطي.

وأما الثالث: فإنه الرحمة المهداة، وما أرسله الله إلا رحمة للعالمين، وإذا كان الإنسان يحب من منحه في دنياه مرة أو مرتين معروفا، أو استنقذه من هلكة أو مضرة مدة التأذي بها قليل منقطع، فمن منحه ما لا يبيد من النعيم، ووقاه ما لا يفنى من عذاب الجحيم أولى بالحب.

وإذا كان يحب بالطبع ملك لحسن سيرته، أو حاكم لما يؤثر من قوام طريقته، أو قاص بعيد الدار لما يشاد من علمه أو كرم شيمته، فمن جمع هذه الخصال على غاية مراتب الكمال أحق بالحب وأولى بالميل، وقد قال علي رضي الله عنه في صفته صلى الله عليه وسلم: من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه[134].

ويزاد على هذه الثلاثة أنه حبيب الرحمين، وذلك يستوجب من كل من يحب الله أن يحبه لحبه إياه.

[134] انظر كتاب: الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض اليحصبي (2/29-31)

وقفة مع شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ودلائل صدقه[135]:

إن كل من درس شخصية رسول الله صلى الله عليه وسلم بإنصاف وإمعان ومعرفة بحقائق الرجال، والصفات التي بها يعرف علو قدر الرجل، وعظم منزلته عند اللّه وعند خلقه، يعلم أن محمد بن عبد اللّه بن عبد المطلب صلى اللّه عليه وسلم، هو أعظم الرجال قدرا، وأعلاهم فخرا، وأكملهم عقلا وأغزرهم علما، وأجلهم رأيا وعزما وحزما، وأكملهم خلقا، وأوسعهم رحمة، وأشدهم شفقة، وأهداهم وأتقاهم.

وهو قطب دائرة الكمال، وإليه المنتهى في أوصاف الرجال، ألا وهو رجل العالم على الإطلاق، يعرف ذلك أولياؤه وأعداؤه[136]، وإذا كان الرجل يكمل في جانب لينوه بذكره في التاريخ، فإنه صلى الله عليه وسلم المتصف بالكمال المتوازن في جميع الجوانب الإنسانية؛ الجوانب التي منها:

- جانب الديانة وصلاح النفس، فإنه كان أتم الناس عبادة وأحسنهم أداء لها.
- وفي جانب بناء المجتمع على أسس قوية وسياسة أمره على أحسنه، فالتاريخ خير شاهد، والمجتمع السميك الذي قام ببنائه في المدينة خلال عشر سنين كان بقوة أسسه من أقوى الدعائم التي عول عليها الأمة الإسلامية في انطلاقها الحثيث واتساعها السريع في العالم.

---

[135] راجع كتاب دلائل النبوة للبيهقي، وأعلام النبوية لأبي الحسن الماوردي.

[136] انظر تفسير السعدي (ص 764)

- وفي جانب مواجهة التحديات ومجابهة أعداء دعوته، فما كان يتسلح به في هذا الجانب من الفطنة والدهاء يبهر العقول، وكيف أنه كان يتخذ المواقف الحكيمة التي تقلب الأحداث في صالح دعوته، ويضع التخطيط الذي يضمن له تحقيق المصالح ودرأ المفاسد؛ مع التزامه في كل ذلك بالقيم الإنسانية والبراءة التامة من الغدر والخيانة، فلم يكن يجري أموره على قاعدة: الغاية تبرر الوسيلة.
- وفي الحياة الاجتماعية، فهو الزوج الحبيب، والأب الحميم، والصاحب الأمين، والذي يمازح أهله، ويداعب أولاده، ويجالس أصحابه.
- وفي جانب الأخلاق الفاضلة، فلقد كان عليه الصلاة والسلام أحسن الناس خلقا وأطيبهم نفسا؛ حيث كان يتحلى بأرفع الصفات الخلقة الفاضلة، شهد له بلك الموالي والمعادي، فإنه كان غاية في التواضع وخفض الجناح للناس؛ الأمر الذي كان عاملا قويا في محبة الناس الشديدة له، وكان يقول: ((ما تواضع أحد لله إلا رفعه)) ويقول: ((لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر))

إنه لم يكن يبتغي العلو في الأرض ولا التسلط على الناس: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[137]

---

[137] سورة القصص، الآية 83.

فما طلب علوا على الناس بما أوتي من علم يجهلونه، ولا فسادا بعد تمكنه منهم. وأنت إذا نظرت عن قرب في الأبطال الذين ينوه بذكرهم في التاريخ فإنك لن تجد هذا الكمال عند أحد منهم غير النبي صلى الله عليه وسلم، وإنما يرفع أحدهم في جانب ويخفض في جوانب.

ومما يمكن إضافته إلى هذه الجوانب:

- كونه أميا؛ لا يكتب ولا يقرأ، ومع ذلك جاء بتعاليم نهضت بالبشرية إلى أعلى مراتب الرقي الإنساني.
- خروجه من قوم متشتتين متناثرين؛ لا تجمعهم قيادة ولا يضبطهم نظام، فوحدهم بهذا الدين يتآخون به ويتوالون.
- كونه عاش في أرض قفر، لم يكن غالبية أهلها متمسكة بدين سماوي، وإنما كانوا متوغلين في جاهلية جهلاء، انحطت بهم إلى أن عبدوا الأحجار والأشجار.
- عظم ما حققه وأنجزه في المدة القصيرة التي مكثها يدعو إلى هذا الدين؛ مع ضآلة الوسائل المادية لديه، وكان أعدائه الذين حاربوه أكثر منهم عدة وعددا؛ إلا أنه أقوى منهم عدة وعددا، وذلك أفضل.

- مجيئه بهذا القرآن الذي يحوي علم الأولين والآخرين، والذي تحدى به الجن والإنس، ويعلم بضرورة العقل أنه لو كان من وضعه لمنعه ذكاءه المفرط الذي مكنه من وضعه عن الإقدام إلى الافتضاح بهذا التحدي الواقف في وجه كل من يروم تكذيبه في حياته وبعدها.

ولو كان هذا الكتاب من وضعه بالفعل - كما يقولون - وقد تحدى به الإنس الجن فلم يقدروا على الإتيان بمثله، لكان فخره بأنه من وضعه الخاص و لم يشاركه فيه أحد أعظم وأولى من أن ينسبه إلى غيره ويصرح بأنه ليس له فيه إلا مجرد التبليغ.

وفي هذا المعنى أيضا: أنه لما فصل الحق في أمر عيسى عليه السلام، قال: ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾[138]

ولو كان يعلم أنه غير صادق لما أقدم على فضح نفسه، لأنهم لو أجابوه لكان فيه بيان كذبه على كل حال، وهو عكس قصده، وإذا لم يجيبوه في حياته فقد يجيبون أتباعه من بعده، فكان فيه إيقاع لهم في الحرج والضيق !

[138] سورة آل عمران، الآية 61.

ولما نزلت عليه هذه الآية، بادر إلى الخروج بأهله دون توقف أو تردد، وطالبهم بذلك فامتنعوا، وهم لو تيقنوا كذبه وصدقهم لما كان لامتناعهم عن إظهار صدقهم وكذبه الذي تحداهم به أي معنى.

وهذا لو كان في جزئية من عقيدتهم لَعِيب عليهم إعراضهم عنها؛ مع القدرة على كشف الحق فيها، كيف وهو في أس عقيدتهم ؟!!

وعجزهم – على مر الأيام – عن إسقاط هذا التحدي الذي يصرخ في الآفاق بصدق ما جاء به هذا الرجل، وكذب ما هم عليه، هو من أكبر الآيات على أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكل الذين أصروا على التكذيب بدعوة هذا الرجل؛ رغم وضوحها وقوتها، لا يصح منهم تصديق رسول آخر من رسل الله عليهم الصلاة والسلام.

ذلك لأن الطريق الذي يعلم به نبوة موسى وعيسى، يعلم به نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بطريق الأولى.

فإذا قالوا: عُلمت نبوة موسى والمسيح بالمعجزات وعُرفت المعجزات بالنقل المتواتر إلينا.

قيل لهم: معجزات محمد أعظم، وتواترها أبلغ، والكتاب الذي جاء به محمد أكمل.

فإن معجزة كل من موسى وعيسى عليهما السلام كانت في إطار محدود لم تجاوزه لتخاطب العالم بأكمله، وإنما سمع بها من لم يشهدها في حينها ومكانها عن طريق النقل، ومحمد صلى الله عليه وسلم قد ثبت له من هذا الجنس الشيء الكثير، ونقل نقلا أفيض وأصح.

ثم خص بالمعجزة الخالدة التي أعجز الإنس والجان، وهي القرآن.

فإن ساغ لقائل أن يقول هو – مع هذا – كاذب مفتر، كان على هذا التقدير الباطل غيره أولى أن يقال فيه ذلك، فيبطل بتكذيبهم محمدا صلى الله عليه وسلم جميع ما معهم من النبوات؛ إذ حكم أحد الشيئين حكم مثله، فكيف بما هو أولى منه ؟[139]

[139] انظر الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لشيخ الإسلام رحمه الله (1/174-175)

الركن الثاني: الصلاة.

الصلاة في اللغة: تطلق الصلاة في اللغة على الدعاء، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾[140]

والصلاة شرعاً: عبادة ذات أقوال وأفعال مخصوصة، تفتتح بالتكبير وتختتم بالتسليم[141].

حكم الصلوات الخمس: فرض على كل مسلم عاقل بالغ الذي لم يتلبس بمانع من موانع الصلاة كالحيض ونحوه.

ودليل ذلك القرآن والسنة والإجماع.

دليل القرآن: ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾[142]

دليل السنة: قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((بنى الإسلام على خمس: ...)) وذكر منها: ((وإقام الصلاة...))[143]

---

[140] سورة التوبة: من الآية 103.

[141] انظر الشرح الممتع للشيخ ابن العثيمين (5/2)

[142] سورة النساء، الآية 103.

[143] متفق عليه: البخاري في صحيحه: () ومسلم في صحيحه: ()

الإجماع: فرضية الصلاة معلومة بالضرورة من الدين، ولهذا لم ينكرها أحد من أهل القبلة.

وتُعدُّ الصلاة أعظم العبادات شأناً وأوضحها برهاناً، اهتم بها الإسلام وأولاها أيما عناية، فبيّن فضلها ومنزلتها بين العبادات، وأنها صلة بين العبد وربه، يظهر بها امتثال العبد أوامر ربّه.

وهي خمس صلوات في اليوم والليلة، شرعها الله – تعالى – لتكون صلة بينه وبينه المسلم، يُناجيه فيها ويدعوه، ولتكون ناهية للمسلم عن الفحشاء والمنكر، فيحصل له من الراحة النفسية والبدنية ما يسعده في الدنيا والآخرة.

وقد شرع الله للصلاة طهارة البدن والثياب، والمكان الذي يصلى فيه، فيتنظف المسلم بالماء الطهور من النجاسات، مثل: البول والبراز، لكي يطهر بدنه من النجاسة الحسية، وقلبه من النجاسة المعنوية[144].

[144] انظر كتاب دين الحق للشيخ عبد الرحمن بن حماد آل عمر.

بعض الحكم في مشروعيتها:

شرعت الصلاة لحكم وأسرار يمكن الإشارة إلى بعضها في الآتي:

- عبودية العبد لله تعالى، وأنه مملوك له سبحانه وتعالى، فبهذه الصلاة يشعر الإنسان بالعبودية ويبقى دائماً مرتبطاً بخالقه سبحانه وتعالى.
- تجعل الصلاة صاحبها قوي الصلة بالله دائم الذكر له، قال تعالى: ﴿ فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾[145]
- تنهى الصلاة صاحبها عن الفحشاء والمنكر، قال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾[146]
- الصلاة من أسباب تطهير العبد من الذنوب والخطايا. وقد دل على هذا حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى

---

[145] سورة طه، الآية 14.

[146] سورة العنكبوت، الآية 45.

الله عليه وسلم: ((مثل الصلوات كمثل نهر جار يمر على باب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات))[147]

- الصلاة طمأنينة للقلب وراحة للنفس ومخلصة لها من المصائب التي تكدر صفوها؛ ولهذا كانت قرة عين لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان يفزع إليها إذا حزبه أمر، حتى كان يقول صلى الله عليه وسلم: ((يا بلال أرحنا بالصلاة))[148]
- في الصلاة تقوية الروابط الاجتماعية بين الأفراد؛ حيث يجتمعون خمس مرات يوميا في المسجد لأداء الصلوات جماعة.

[147] رواه مسلم في صحيحه: باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا...، رقم (284) وللبخاري نحوه من حديث جابر: باب الصلوات الخمس كفارة، رقم (528)

[148] أخرجه أحمد في المسند (178/38) رقم (23088)

عدد الصلوات وأوقاتها: الصلوات المفروضة خمس صلوات في اليوم الليلة، وهي كالتالي:

﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ سورة الإسراء، الآية 78.

صلاة الظهر: أربع ركعات، وقتها من زوال الشمس من كبد السماء نحو المغرب إلى أن يصير ظل كلّ شيء مثله.

صلاة العصر: أربع ركعات، ووقتها من مصير ظل كل شيء مثله إلى غروب الشمس، ويجب على غير المعذور صلاتها قبل أن يصير ظل الشيء مثليه؛ لأن ما بعده وقت لأهل الأعذار.

صلاة المغرب: ثلاث ركعات، ووقتها من غروب الشمس إلى أن يغيب الشفق الأحمر، وهو الحمرة التي تعقب غروب الشمس.

صلاة العشاء: أربع ركعات، ووقتها من غيبوبة الشفق الأحمر إلى منتصف الليل.

صلاة الصبح: من طلوع الفجر الصادق إلى طلوع الشمس، ولا يجوز لغير المعذور تأخيرها إلى ما قبيل الطلوع؛ لأنه وقت أهل الأعذار.

الركن الثالث: إيتاء الزكاة.

الزكاة لغة: هي النماء والزيادة، وتطلق على المدح والتطهير والصلاح، وسُمِيَ المخرج زكاة لأنه يزيد به المال بالبركة ويطهر المرء بالمغفرة.

والزكاة شرعاً: هي حقّ مقدر شرعاً في مال خاص لطائفة مخصوصة في وقت مخصوص.

حكم الزكاة: فرض على المسلم الذي يملك مالا توفت فيه شروط وجوب الزكاة[149].

ودليل وجوبها القرآن والسنة والإجماع.

قال الله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾[150]

والدليل من السنة: حديث: ((بني الإسلام على خمس: ...)) ومنها ((وإيتاء الزكاة ...))

وأما الإجماع: فلم يؤثر عمن يعتد به الخلاف في وجوبها.

---

[149] يراجع كتب الفقه الإسلامي للتوسع في تفاصيل الزكاة.
[150] سورة البقرة، الآية 43.

الأموال الزكوية: هي خمسة أجناس، وإليك إجمالها:

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ سورة التوبة 103.

الأثمان
وهي الذهب والفضة وكل ما يقوم مقامهما من العملات الورقية المتداولة.

بهيمة الأنعام
وهي الإبل والبقر والغنم، وتجب فيها الزكاة إذا كانت سائمة، وهي التي ترعى أكثر الحول.

الزروع والثمار.

عروض التجارة
وهي ما أعده المسلم للتجارة من أيِّ صنف كان.

المعادن والركاز.

المعادن: هي كل ما خرج من الأرض مما يخلق فيها من غيرها مما له قيمة وليس نباتاً. مثل الذهب والفضة.

هو ما وجد في الأرض من دفائن الجاهلية، أو دفائن من تقدم من الكفار.

مصارف الزكاة:

حدد أصناف الناس الـذين يصـرف إلـيهم الزكـاة في قولـه: ﴿ إِنَّمَـا الصَّـدَقَاتُ لِلْفُقَـرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَـارِمِينَ وَفِـي سَـبِيلِ اللَّـهِ وَابْـنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[151]

[151] سورة التوبة، الآية 60.

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

- الفقراء: وهم الذين لا يجدون شيئاً من المعيشة، أو يجدون بعض كفايتهم منها.
- المساكين: وهم الذين يجدون نصف كفايتهم أو أكثرها.
- العاملون عليها: وهم الذين يقومون بجمع الزكاة وحفظها توزيعها.
- المؤلفة قلوبهم: وهم قسمان: كفار، ومسلمون.
  - الكافر: إذا رجي إسلامه، أو كف ضرره.
  - المسلم: لتقوية إسلامه، أو رجاء إسلام نظيره.
- وهم العبيد الأرقاء المكاتبون الذين لا يجدون وفاء.
- الغارمون: وهم المدنيون، وهم نوعان: غارم لنفسه، وغارم لغيره.
  - الغارم لنفسه: من عجز عن تسديد دين تحمله لنفسه.
  - الغارم لغيره: من عجز عن تسديد دين تحمله لإصلاح ذات البين.
- في سبيل الله: المجاهد في سبيل الله.
- ابن السبيل: المنقطع في سفره، الذي لا يجد من النفقة ما يوصله إلى بلده.

من حِكم مشروعية الزكاة وفوائدها الفردية والاجتماعية[152]:

- إتمام إسلام العبد وإكماله؛ لأنها أحد أركان الإسلام، فإذا قام بها الإنسان تم إسلامه وكمل.
- أنها دليل على صدق إيمان المزكي، وذلك أن المال محبوب للنفوس، والمحبوب لا يبذل إلا ابتغاء محبوب مثله أو أكثر، بل ابتغاء محبوب أكثر منه.
- أنها تزكي أخلاق المزكي، فتنتشله من زمرة البخلاء، وتدخله في زمرة الكرماء؛ لأنه إذا عود نفسه على البذل صار سجية له وطبيعة.
- أنها تشرح الصدر، فالإنسان إذا بذل الشيء، ولا سيما المال، يجد في نفسه انشراحا، وهذا شيء مجرب، ولكن بشرط أن يكون بذله بسخاء وطيب نفس، لا أن يكون بذله وقلبه تابع له.
- أنها تجعل المجتمع الإسلامي كأنه أسرة واحدة، يضفي فيه القادر على العاجز، والغني على المعسر، فيصبح الإنسان يشعر بأن له إخوانا يجب عليه أن يحسن إليهم كما أحسن

---

[152] انظر الشرح الممتع للشيخ ابن العثيمين ()

الله إليه، قال تعالى: ﴿ وأحسن كما أحسن الله إليك ﴾[153] فتصبح الأمة الإسلامية وكأنها عائلة واحدة، وهذا ما يعرف عند المتأخرين بالتكافل الاجتماعي، والزكاة هي خير ما يكون لذلك؛ لأن الإنسان يؤدي بها فريضة، وينفع إخوانه.

- أنها تطفئ حرارة ثورة الفقراء؛ لأن الفقير قد يغيظه ما يراه من آثار الغناء على غيره مع بؤس حاله وخشونة عيشه، فإذا جاد الأغنياء على الفقراء بالزكاة كسروا ثورتهم وهدؤوا غضبهم.
- أنها تمنع الجرائم المالية مثل السرقات والنهب والسطو، وما أشبه ذلك؛ لأن الفقراء يأتيهم ما يسد شيئا من حاجتهم، ويعذرون الأغنياء بكونهم يعطونهم من مالهم.
- النجاة من حر يوم القيامة فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((كل امرئ في ظل صدقته يوم القيامة))
- أنها تزكي المال، يعني تنمي المال حسا ومعنى، فإذا تصدق الإنسان من ماله فإن ذلك يقيه الآفات، وربما يفتح الله له زيادة رزق بسبب هذه الصدقة.

---

[153] سورة القصص، الآية 77.

وهذا شيء مشاهد أن الإنسان البخيل ربما يسلط على ماله ما يقضي عليه أو على أكثره باحتراق، أو خسائر كثيرة، أو أمراض تلجئه إلى العلاجات التي تستترف منه أموالا كثيرة.

- أنها تكفر الخطايا، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: ((الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار))

الركن الرابع: صوم شهر رمضان.

الصوم لغة: الصيام في اللغة مصدر صام يصوم، ومعناه أمسك.

الصوم شرعاً: التعبد لله سبحانه وتعالى بالإمساك عن الأكل والشرب، وسائر المفطرات؛ من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.

ورمضان من الرمضاء الذي بمعنى الحر، قيل لأن شهر رمضان تحرق فيها الذنوب.

وهو الشهر التاسع من أشهر السنة القمرية.

حكم صوم رمضان: فرض على السلم البالغ العاقل الحاضر الخالي من موانع الصيام[154].

ودليل ذلك القرآن والسنة والإجماع.

قال الله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[155]

وقد تقدم حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه في أركان الإسلام.

---

[154] من موانع الصيام: الحيض والنفاس للمرأة، والمرض وما يلحق به من هرم أو غيره للجميع، قال تعالى: ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ سورة البقرة، الآية 184.

[155] سورة البقرة، الآية 183.

من فوائد الصوم:

- تدريب العبد على تقوى الله ومراقبته، لأن الصوم خفي وسر لا يطلـع عليـه مـن العبـد إلا الله، فترك العبد عندما يصوم للمفطرات المحبوبات إلى النفس إنما هو لله وحده.

- حبس العبد نفسه في الصوم يمكنه من نفسه، فيكون بـذلك آخـذا بزمامهـا؛ لأنـه إن منـع نفسه مما كان حلالا لها تثوبا، قوي على حبسها عن المحرمات تأثما.

- في الصوم لفت انتباه المسلم إلى إخوانه الفقراء الـذين يكابـدون ألم الجـوع ويقلقـون مـن لقمة يسدون بها رمقهم.

- في الصوم تذكير المسلم بما وسع الله عليه من أنواع النعم التي تنسيه إياها المداومة عليها.

الركن الخامس: حج البيت.

الحج لغة: القصد.

الحج شرعاً: التعبد لله عز وجل بقصد أماكن مخصوصة، في وقت مخصوص، لأداء مناسك مخصوصة.

حكم الحج: فرض على المسلم البالغ العاقل المستطيع مرة واحدة في عمره.

ودليل ذلك القرآن والسنة والإجماع.

ففي القرآن: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾[156]

ومن السنة: قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((بني الإسلام على خمس)) ومنها ((وحج البيت))[157]

أما الإجماع: أجمعت الأمة على فرضية الحج بشروطها[158].

---

[156] سورة آل عمران، الآية 97.

[157] متفق عليه، تقدم (ص).

[158] وقد حكى هذه الإجماعات على فرضية الأركان الأربعة كثير من أهل العلم، فليراجع في ذلك الفروع الفقهية.

من حِكَم تشريع الحج وفوائده على الفرد والمجتمع:

- الحج مظهر عملي للأخوة الإسلامية، ووحدة الأمة الإسلامية، حيث تذوب في الحج فوارق الأجناس والألوان واللغات والأوطان والطبقات، وتبرز حقيقة العبودية والأخوة، فالجميع بلباس واحد، يتجهون لقبلة واحدة، ويعبدون إلهاً واحدا.
- والحج مدرسة يتعود فيها المسلم على الصبر، ويتذكر فيها اليوم الآخر وأهواله، ويستشعر فيه لذة العبودية لله، ويعرف عظمة ربه، وافتقار الخلائق كلها إليه.
- والحج موسم كبير لكسب الأجور، وتكفير السيئات، يقف فيه العبد بين يدي ربه مقراً بتوحيده، معترفاً بذنبه وعجزه عن القيام بحق ربه، فيرجع من الحج نقياً من الذنوب كيوم ولدته أمه.
- وفي الحج تذكير بأحوال الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام وعبادتهم، ودعوتهم وجهادهم، وأخلاقهم، وتوطين النفس على فراق الأهل والولد.
- والحج ميزان يعرف به المسلمون أحوال بعضهم، وما هم عليه من علم، أو جهل، أو غنى، أو فقر، أو استقامة، أو انحراف.

من الحكم في تشريع الإسلام لهذه العبادات المتنوعة في متعلقاتها ووسائلها:

إذا تأملتَ تشريع الإسلام لهذه العبادات وجدته على ضربين:

الأول: ما هو كف عن المحبوبات؛ مثل الصوم.

الثاني: ما هو بذل للمحبوبات؛ كالزكاة.

فإن نفس الإنسان قوتان: قوة الإقدام والشجاعة، وقوة الانكفاف والإحجام والمهانة[159].

واستقامة الإنسان إنما تتم بتوازنه بين القوتين، فكان في تنويع العبادات في التكليف اختبار المكلف كيف يكون امتثاله لهذه الأنواع، فهل يمتثل ويقبل ما يوافق طبعه، أو يمتثل ما به رضا الله عز وجل ؟

فإذا تأملنا العبادات: الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، وجدنا أن بعضها بدني محض، وبعضها مالي محض، وبعضها مركب، حتى يتبين الشحيح من الجواد، فربما يهون على بعض الناس أن يصلي ألف ركعة، ولا يبذل درهما، وربما يهون على بعض الناس أن يبذل ألف درهم ولا يصلي ركعة واحدة أو يصوم يوما واحدا.

فجاءت الشريعة بالتقسيم والتنويع حتى يعرف من يمتثل تعبدا لله، ومن يمتثل تبعا لهواه[160].

---

159 انظر إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن القيم الجوزية (116/1)

160 انظر الشرح الممتع (299/6-300)

فشمول هذه العبادات لجوانب الإنسان وتنوعها يدل على شدة ارتباطها بحياة الإنسان.

المرتبة الثانية: الإيمان.

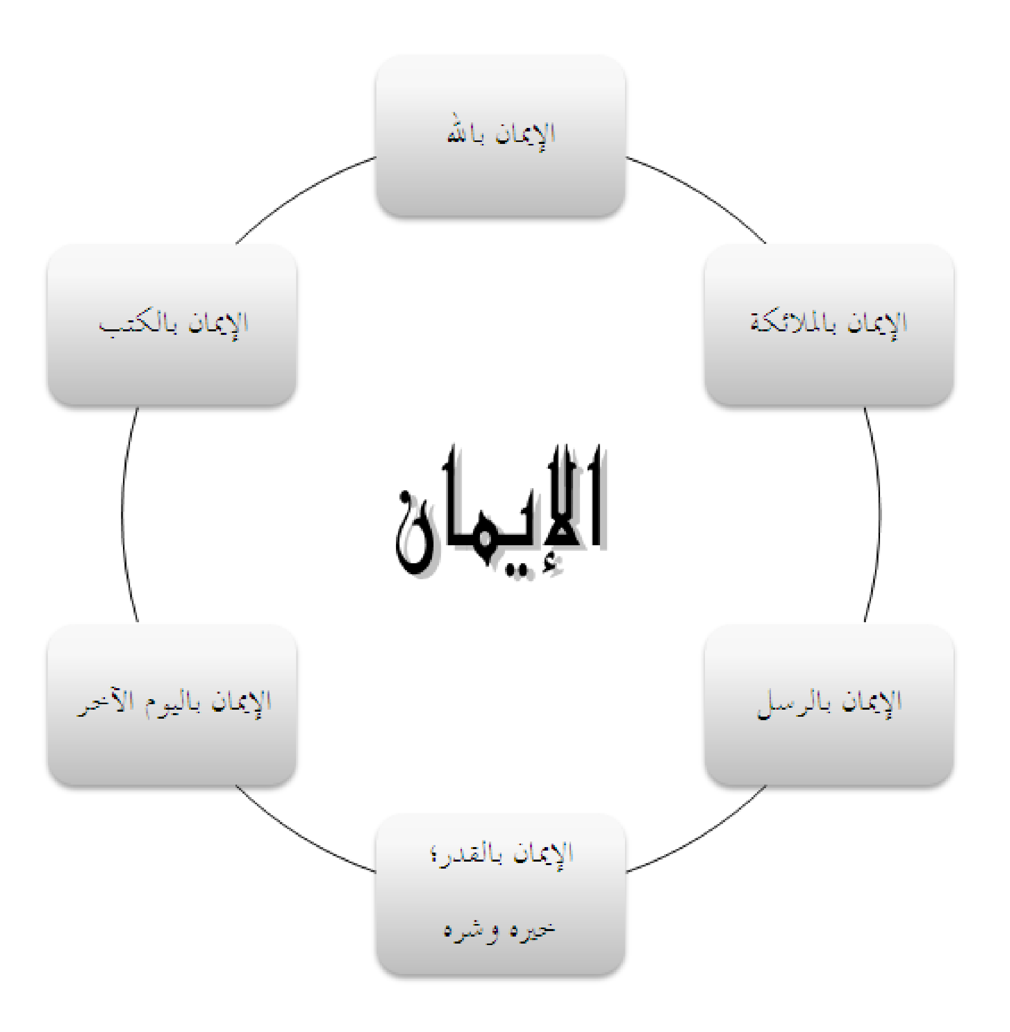
والإيمان الذي هو المرتبة الثانية من مراتب الدين هو قدر زائد على إيمان مَن هو في المرتبة الأولى من الإسلام، لأنه لا بد وأن يكون معه من الإيمان ما يصح به إسلامه، ولا يعني كون الإيمان هو المرتبة الثانية من مراتب الدين أن لا يكون منه شيء لمن هو في مرتبة الإسلام[161]: ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[162]

---

[161] انظر كتاب الإيمان لابن تيمية.

[162] سورة الحجرات، الآية 14.

وأركان الإيمان ستة:



الركن الأول: الإيمان بالله.

وهو الإقرار بوجود الله وجودا لم يسبق بعدم ولا يلحقه زوال.

والإقرار باختصاصه بحقوقه كلها، وهي على ثلاثة أنواع:

النوع الأول: حقوق الربوبية؛ بأنه متفرد بالخلق والزر والتدبير.

النوع الثاني: حقوق الألوهية؛ بأنه المستحق للعبادة وحده لا يشاركه فيها أحد.

النوع الثالث: حقوق الأسماء والصفات؛ بأنه متصف بجميع صفات الكمال، وله أسماء متضمنة للكمال المطلق في ذاته وصفاته وأفعاله.

وهذا الإيمان بالله تعالى وأسمائه وصفاته، إذا كان صحيحا نزيها مما يشوبه أثمر للعبد محبة الله وتعظيمه الموجبين للقيام بأمره واجتناب نهيه، وهذان الجانبين متى اجمعا في العبد نال بذلك من انشراح القلب واطمئنانه وكمال السعادة في الدنيا والآخرة ما تعجز الكلمة عن وصفه ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[163]

[163] سورة النحل، الآية 97.

فهو أساس كل خير في حياة الإنسان، وبدون هذا الإيمان الصحيح لا يكون لجود الإنسان أي معنى، ويخسر الإنسان نفسه وكل ما كسبت يده.

وسبب ذلك واضح، فإن المؤمنين بالله الإيمان الصحيح، المثمر للعمل الصالح المصلح للقلوب والأخلاق والدنيا والآخرة، معهم أصول وأسس يتلقون فيها جميع ما يرد عليهم من أسباب السرور والابتهاج، وأسباب القلق والهم والأحزان.

يتلقون المحاب والمسار بقبول لها، وشكر عليها، واستعمال لها فيما ينفع، فإذا استعملوها على هذا الوجه. أحدث لهم من الابتهاج بها، والطمع في بقائها وبركتها، ورجاء ثواب الشاكرين، أموراً عظيمة تفوق بخيراتها وبركاتها هذه المسرات التي هذه ثمراتها.

ويتلقون المكاره والمضار والهم والغم بالمقاومة لما يمكنهم مقاومته، وتخفيف ما يمكنهم تخفيفه، والصبر الجميل لما ليس لهم منه بد، وبذلك يحصل لهم من آثار المكاره من المقاومات النافعة، والتجارب والقوة، ومن الصبر واحتساب الأجر والثواب أمور عظيمة تضمحل معها المكاره، وتحل محلها المسار والآمال الطيبة، والطمع في فضل الله وثوابه، كما عبر النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا في الحديث الصحيح: ((عجباً لأمر المؤمن، إن أمره

كله خير، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكـان خـيراً لـه ولـيس ذلك لأحد إلا للمؤمن))[164]

لهذا تجد اثنين تطرقهما نائبة من نوائب الخـير أو الشـر فيتفاوتـان تفاوتـاً عظيمـاً في تلقيها، وذلك بحسب تفاوتهما في الإيمان والعمـل الصـالح. هـذا الموصـوف بهـذين الوصـفين يتلقى الخير والشر بالشكر والصبر وما يتبعهما، فيحـدث لـه السـرور والابتـهاج، وزوال الهـم والغم، والقلق، وضيق الصدر، وشقاء الحياة وتتم له الحياة الطيبة في هذه الدار.

والآخر يتلقى المحاب بأشرٍ وبطرٍ وطغيان، فتنحـرف أخلاقـه ويتلقاهـا كمـا تتلقاهـا البهائم بجشع وهلع، ومع ذلك فإنه غير مستريح القلـب، بـل مشـتته مـن جهـات عديـدة، مشتت من جهة خوفه من زوال محبوباته، ومن كثرة المعارضـات الناشـئة عنـها غالبـاً، ومـن جهة أن النفوس لا تقف عند حد بل لا تزال متشـوقة لأمـور أخـرى، قـد تحصـل وقـد لا تحصل، وإن حصلت على الفرض والتقدير فهو أيضـاً قلـق مـن الجهـات المـذكورة ويتلقـى المكاره بقلق وجزع وخوف وضجر، فلا تسأل عن ما يحـدث لـه مـن شـقاء الحيـاة، ومـن الأمراض الفكرية والعصبية، ومن الخوف الـذي قـد يصـل بـه إلى أسـوأ الحـالات وأفظـع المزعجات، لأنه لا يرجو ثواباً. ولا صبر عنده يسليه ويهون عليه.

---

[164] رواه مسلم في صحيحه: باب المؤمن أمره كله خير، رقم (64)

وكل هذا مشاهد بالتجربة، ومثـــل واحـــد مـــن هـــذا النـــوع، إذا تدبرتـــه ونزلته على أحوال الناس، رأيت الفرق العظيم بين المؤمن العامل بمقتضـــى إيمانـــه، وبـــين مـــن لم يكن كذلك، وهو أن الدين يحث غاية الحث على القناعـــة بـــرزق الله، وبمـــا آتـــى العبـــاد مـــن فضله وكرمه المتنوع.

فالبر والفاجر، والمؤمن والكافر يشتركان في جلـــب الشـــجاعة الاكتســـابية، وفي الغريـــزة الـــتي تلطف المخاوف وتهونها، ولكن يتميز المؤمن بقوة إيمانـــه وصـــبره وتوكلـــه علـــى الله واعتمـــاده عليه، واحتسابه لثوابه ـــ أموراً تزداد بها شجاعته، وتخفف عنـــه وطـــأة الخـــوف، وتهـــون عليـــه المصاعب، كما قال تعالى: ﴿ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَـــأْلَمُونَ كَمَـــا تَـــأْلَمُونَ وَتَرْجُـــونَ مِـــنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾[165]

ويحصل لهم من معونة الله ومعينه الخاص ومدده ما يبعثر المخاوف[166].

[165] سورة النساء، الآية 104.

[166] الوسائل المفيدة للحياة السعيدة للشيخ عبد الرحمن السعدي (ص4-7)

الركن الثاني: الإيمان بالملائكة.

ويكون بأن نؤمن أنهم خلق من مخلوقات الله خلقهم الله من نور[167]، وأنهم ﴿ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾[168]

يقومون بعبادته وينقادون لطاعته ﴿ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ ﴾[169]

وهم عالم غيبي لا يشاهدون، وقد يشاهدون، إنما الأصل أنهم عالم غيبي مخلوقون، مكلفون بما كلفهم الله به من العبادات وهم خاضعون لله عز وجل أتم الخضوع، ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾[170]

كذلك نؤمن بأسماء من علمنا بأسمائهم ونؤمن بوظائف من علمنا بوظائفهم، ويجب علينا أن نؤمن بذلك على ما علمنا؛ مثل:

---

[167] دليل ذلك حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((خلقت الملائكة من نور ...)) الحديث، رواه مسلم في صحيحه: باب في أحاديث متفرقة، رقم (2996)

[168] سورة الأنبياء، الآية 26-27.

[169] سورة الأنبياء، الآية 19.

[170] سورة التحريم، الآية 6.

- جبريل عليه الصلاة والسلام: وهو الموكل بالوحي إلى الأنبياء والرسل.
- ميكائيل عليه الصلاة والسلام: وهو الموكل بالقطر والنبات.
- إسرافيل عليه الصلاة والسلام: وهو الموكل بالنفخ في الصور.
- مالك خازن النار: وهو الموكل بالنار.
- رضوان خازن الجنة: وهو الموكل بالجنة.
- ومنهم ملك الموت الموكل بقبض الأرواح عند الموت.

ونؤمن إيمانا مجملا بجميع الملائكة وعدد كثير لا يحصيه إلا خالقهم جل وعلا: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾

وهم أجساد؛ بدليل قوله تعالى: ﴿ جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة ﴾ خلافا لمن يقول إنهم أرواح فقط.

والإيمان بالملائكة على الوجه الصحيح يثمر للعبد ثمار كثيرة منها:

- العلم بعظمة خالقهم تبارك وتعالى وقوته وسلطانه؛ لأن عظمة المخلوق دال على عظمة الخالق.

- شكره تعالى على عنايته بعباده، حيث وكلّ بهم من هؤلاء الملائكة مـــن يقـــوم بحفظهـــم وكتابة أعمالهم وغير ذلك من مصالحهم.
- محبة الملائكة على ما قاموا به من عبادة الله تعـــالى علـــى الوجـــه الأكمـــل واســـتغفارهم للمؤمنين.

الركن الثالث: الإيمان بالكتب:

يكون بالإيمان بأن الله تعالى أنزل كتبا على رسله الذين بعثهم إلى الناس ليعلموهم الدين الحق ويهدوهم إلى الطريق المستقيم، تشتمل تلك على تعاليم نافعة للخلق في أمور دينهم ومعاشهم، فقام الرسل بتبليغها إلى أممهم وبثوها فيهم لتكون دواوين لتعاليمهم وتبقى في الناس بعدهم، قال الله تعالى: ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ﴾[171]

إلا أننا لا نعرف كل الكتب على سبيل التفصيل، وإنما ذكر لنا القرآن منها: صحف إبراهيم، وقيل إنها التوراة، والتوراة لموسى، والإنجيل لعيسى، والزبور لداود، والقرآن لمحمد عليهم الصلاة والسلام.

ومع ذلك نؤمن بكل كتاب أنزله الله على الرسل وإن لم نعلم به، نؤمن به إجمالاً.

وأما ما في أيدي أهل الكتاب مما يسمى بالتوراة والإنجيل لا تصح نسبته كله إلى أنبياء الله ورسله، فقد وقع فيهما التحريف والتبديل، كنسبتهم الولد إلى الله، وتأليه النصارى لعيسى بن مريم عليه السلام، ووصف الخالق بما لا يليق بجلاله، واتهام الأنبياء ونحو ذلك، فيجب رد ذلك كله، وعدم الإيمان إلا بما جاء في القرآن أو السنة تصديقه.

---

[171] سورة الحديد، الآية 25.

وقفة مع القرآن:

هو آخر الكتب التي أنزلها الله على رسله عليهم السلام، وهو ناسخ للتشريعات التي جاء بها الكتب قبله، وهو أتمها وأكملها.

قال تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾[172]

وهو أشرف كتاب أنزل على رسول، ولا يوجد في التوراة والإنجيل علم نافع وعمل صالح إلا وهو في القرآن أو مثله أو منه، وفي القرآن من العلم النافع والعمل الصالح ما لا يوجد مثله في التوراة والإنجيل.

وهو كتاب معجز للجن والإنس عن الإتيان بمثله؛ بل بأدنى سورة فيه، قال تعالى: ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[173] فما قعد ألد أعدائه عن الإتيان بمثله إلا عن عجز منهم، فالإعجاز إذاً صفة للقرآن؛ لا أن الله هو الذي سلبهم القدرة على ذلك.

---

[172] سورة المائدة، الآية 48.

[173] سورة الإسراء، الآية 88.

وهذا الإعجاز هو أعظم آية لصدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ () أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[174]

وهذا الجواب كلام مختصر جامع، فيه من الآيات البينات، والدلالات الباهرات، شيء كثير، فإنه كما تقدم إتيان الرسول به بمجرده وهو أمي، من أكبر الآيات على صدقه.

ثم عجزهم عن معارضته، وتحديه إياهم آية أخرى، ثم ظهوره، وبروزه جهرا علانية، يتلى عليهم، ويقال: هو من عند اللّه، قد أظهره الرسول، وهو في وقت قلَّ فيه أنصاره، وكثر مخالفوه وأعداؤه، فلم يخفه، و لم يثن ذلك عزمه، بل صرح به على رءوس الأشهاد، ونادى به بين الحاضر والباد، بأن هذا كلام ربي، فهل أحد يقدر على معارضته، أو ينطق بمباراته أو يستطيع مجاراته ؟

ثم إخباره عن قصص الأولين، وأنباء السابقين والغيوب المتقدمة والمتأخرة، مع مطابقته للواقع.

[174] سورة العنكبوت، الآية 50-51.

ثم هيمنته على الكتب المتقدمة، وتصحيحه للصحيح، ونفيُ ما أدخل فيها من التحريف والتبديل، ثم هدايته لسواء السبيل، في أمره ونهيه، فما أمر بشيء فقال العقل السليم: « ليته لم يأمر به » ولا نهى عن شيء فقال العقل السليم: « ليته لم ينه عنه » بل هو مطابق للعدل والميزان، والحكمة المعقولة لذوي البصائر والعقول.

ثم مسايرة إرشاداته وهدايته وأحكامه لكل حال وكل زمان؛ بحيث لا تصلح الأمور إلا به[175]. فجميع ذلك يكفي من أراد تصديق الحق، وعمل على طلبه. فلا كفى اللّه من لم يكفه القرآن، ولا شفى اللّه من لم يشفه الفرقان، ومن اهتدى به واكتفى، فإنه خير له.

---

[175] انظر تفسير السعدي (ص 633)

- **وجوه من إعجاز القرآن:**

الوجه الأول:

ما يتضمن من الإخبار عن الغيوب، وذلك مما لا يقدر عليه البشر ولا سبيل لهم إليه، فمن ذلك ما وعد الله تعالى نبيه عليه السلام أنه سيظهر دينه على الأديان بقوله عز و جل: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾[176] ففعل ذلك.

الوجه الثاني:

أنه كان معلوما من حال النبي أنه كان أميا لا يكتب ولا يحسن أن يقرأ، وكان معروفا من حاله أنه لم يكن يعرف شيئا من كتب المتقدمين وأقاصيصهم وأنبائهم وسيرهم، ثم أتى بجمل ما وقع وحدث من عظيمات الأمور ومهمات السير من حين خلق الله آدم عليه السلام إلى حين مبعثه.

ونحن نعلم ضرورة أن هذا مما لا سبيل إليه إلا عن تعلم، وإذ كان معروفا أنه لم يكن ملابسا لأهل الآثار وحملة الأخبار ولا مترددا إلى التعلم منهم، ولا كان ممن يقرأ فيجوز أن يقع إليه كتاب فيأخذ منه، علم أنه لا يصل إلى علم ذلك إلا بتأييد من جهة الوحي،

---

[176] سورة التوبة، الآية 33.

ولذلك قال الله عز و جل: ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾

ومعلوم أن من كان يختلف إلى تعلم علم ويشتغل بملابسة أهل صنعة لم يخف على الناس أمره، و لم يشتبه عندهم مذهبه، وليس يخفى في العرف عالم كل صنعة ومتعلمها، فلو كان منهم لم يخف أمره.

الوجه الثالث:

أنه بديع النظم عجيب التأليف متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه.

فنظم القرآن على تصرف وجوهه وتباين مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد.

و لم يكن للعرب كلام مشتمل على فصاحة القرآن، وما فيه من والغرابة والتصرف البديع والمعاني اللطيفة والفوائد الغزيرة والحكم الكثير والتناسب في البلاغة والتشابه في البراعة على هذا الطول.

زد على ذلك أن عجيب نظم القرآن وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها؛ من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج وحكم وأحكام وإعذار وإنذار ووعد ووعيد وتبشير وتخويف وأوصاف وتعليم أخلاق كريمة وشيم رفيعة وسير مأثورة وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها، ونجد البليغ الكامل والشاعر المفلق والخطيب المصقع تتفاوت جودة كلامه أو شعره على حسب الأحوال التي يتصرف فيها.

وأنت إذا تأملت نظم القرآن وجدت جميع ما يتصرف فيه من الوجوه على حد واحد في حسن النظم وبديع التأليف والرصف؛ لا تفاوت فيه ولا انحطاط عن المنزلة العليا، ولا إسفاف فيه إلى الرتبة الدنيا.

ومع ذلك كله فهو سهل السبيل، خارج عن الوحشي المستكره والغريب المستنكر وعن الصنعة المتكلفة، فإنه ببديع نظمه قريب إلى الإفهام؛ يبادر معناه لفظه إلى القلب، ويسابق المغزى منه عبارته إلى النفس، وهو مع ذلك ممتنع المطلب عسير المتناول، غير مطمع مع قربه في نفسه، ولا موهم مع دنوه في موقعه أن يقدر عليه أو يظفر به[177].

---

[177] انظر كتاب: إعجاز القرآن للقاضي أبي بكر الباقلاني (ص 33 – 50)

- **من ثمرات الإيمان بالكتب:**

ما يثمره الإيمان بالكتب للعبد في دينه ودنياه كثير، فمها:

- العلم برحمة الله تعالى وعنايته بخلقه، حيث أنزل لكل قوم كتاباً يهديهم به.
- ظهور حكمة الله تعالى؛ حيث شرع في هذه الكتب لكل أمة ما يناسبها. وكان خاتم هذه الكتب القرآن العظيم، مناسباً لجميع الخلق في كل عصر ومكان إلى يوم القيامة.
- شكر نعمة الله تعالى على ذلك كله، فإنه لم يهمل خلقه يتخبطون في ظلمات الجهل والتيه، بل أنزل عليهم كتبا تنير لهم الطريق إلى سعادة الدارين.

الركن الرابع: الإيمان بالرسل:

وهو أن نؤمن بأن الله أرسل إلى عباده رسلا أوحى الله إليهم بالشرائع وأمرهم بتبليغها، وأولهم نوح وآخرهم محمد صلى الله عليه وسلم.

الدليل على أن أولهم نوح: قوله تعالى: ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ﴾[178]

أما آدم عليه الصلاة والسلام، فهو نبي، وليس برسول.

ونؤمن على سبيل التفصيل بأسماء من علمنا اسمه منهم، وأنهم صادقون فيما أخبروا به عن ربهم، وصحة أديانهم أصالة، وكما نؤمن إيمانا مجملا بمن لم نعرف اسمه منهم؛ لأن الله لم يذكر لنا جميعهم في كتابه، قال تعالى: ﴿ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾[179] وذكر الله منهم قس القرآن خمسة وعشرين[180].

أولو العزم من الرسل: نوح، إبراهيم، موسى، عيسى، محمد، عليهم الصلاة والسلام.

178 سورة النساء، الآية 163.

179 سورة غافر، الآية 78.

180 هذا على القول بأن الخضر عبد صالح وليس بنبي، والمسألة محل الخلاف بين أهل العلم، ولقمان خلاف أضعف.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾[181]

هؤلاء الخمسة المذكورين في الآية هم أولو العزم الذين أخذ الله عليهم عهدهم المؤكد على الوفاء بما حملوا وأن يبشر بعضهم ببعض ويصدق بعضهم بعضا، وهم أصحاب الشرائع وأئمة الأمم، وهم أفضل الرسل عليهم الصلاة والسلام.

وقد صرَّح بذكرهم أيضا في هذه الآية: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾[182]

فذكر الطرفين والوسط، الفاتح والخاتم، ومَنْ بينهما على هذا الترتيب.

وهذه هي الوصية التي أخذ الله عليهم الميثاق بها[183].

وأفضلهم وآخرهم هو محمد صلى الله عليه وسلم، وهو أكثرهم أتباعاً وأتمهم دينا، قال الله تعالى: ﴿ ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾[184] و لم يقل: وخاتم المرسلين، لأنه إذا ختم النبوة، ختم الرسالة من باب أولى؛ لأنها فوق رتبة النبوة.

---

[181] سورة الأحزاب، الآية 7.

[182] سورة الشورى، الآية 13.

[183] انظر تفسير القرطبي (115/14) وتفسير ابن كثير (382/6)

الفرق بين النبي والرسول: لم يأت التنصيص على الفارق بينهما في الكتاب والسنة على وجه صريح حاسم، ولذا كثر اجتهاد أهل العلم في تحقيقه، ومما ذكر في ذلك:

- أن من نبأه الله بخبر السماء، إن أمره أن يبلغ غيره، فهو نبي رسول، وإن لم يأمره أن يبلغ غيره، فهو نبي وليس برسول.

فالرسول أخص من النبي، فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولا، ولكن الرسالة أعم من جهة نفسها، فالنبوة جزء من الرسالة، إذ الرسالة تتناول النبوة وغيرها، بخلاف الرسل، فإنهم لا يتناولون الأنبياء وغيرهم، بل الأمر بالعكس. فالرسالة أعم من جهة نفسها، وأخص من جهة أهلها.

- وقيل: إن النبي هو الذي ينبئه الله وهو ينبئ بما أنبأ الله به، فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه فهو رسول، وأما إذا كان إنما يعمل بالشريعة قبله و لم يرسل هو إلى أحد يبلغه عن الله رسالة فهو نبي وليس برسول، قال تعالى:

---

184 سورة الأحزاب، الآية 40.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾[185] [186]

في الآية التفريق بين الاسمين، ولو كانا شيئا واحدا لما حسن تكرارهما في الكلام البليغ، والمعنى[187].

---

[185] سورة الحج، الآية 52.

[186] انظر كتاب النبوات لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص 185)

[187] انظر الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض (251/1)

- **من ثمرات الإيمان بالرسل:**

- التعلم منهم والاقتداء بهم لاهتداء الطريق؛ إذ لا سبيل إلى الدين الصحيح إلا عن طريقهم.
- العلم برحمة الله تعالى وعنايته بخلقه، حيث أرسل إليهم أولئك الرسل الكرام للهداية والإرشاد، ولو أهملهم لما قدروا على الاهتداء إلى صراطه المستقيم.
- شكره تعالى على هذه النعمة الكبرى.
- محبة الرسل وتوقيرهم والثناء عليهم بما يليق بهم، لأنهم رسل الله تعالى وخلاصة عبيده، قاموا بعبادته وتبليغ رسالته والنصح لعباده والصبر على أذاهم.
- إيمان المسلمين بجميع الرسل أكسبهم رحابة الصدر وتسامحا مع أهل الأديان السماوية الأخرى، فإيمانهم بأن تلك الرسالات من عند إله واحد، وهو إلههم المعبود، يجعل في نفوسهم احترام لها وتقبلا لأهلها أكثر من غيرهم؛ مع اعتقادهم الجازم بأنه قد طرأ عليها تبديل تحريف عميقان.

الركن الرابع: الإيمان بالبعث بعد الموت.

البعث بمعنى الإخراج، يعني: إخراج الناس من قبورهم بعد موتهم.

وذلك بأن الله يبعث الخلق بعد موتهم، فيجمع ما تحلل من أجزاء الأجساد التي كانت في الدنيا، وينشئها خلقا جديدا ، ويعيد الحياة إليها.

وهذا الإيمان يشمل كل ما أخبار الله به في كتابه أو على لسان ورسوله مما يكون بعد الموت في مرحلة الحياة البرزخية ومرحلة ما بعد البعث؛ مما هو حاصل في حرصات القيامة من: الحشر، والحساب، والصراط، والميزان، والجنة، والنار وغير ذلك. وكما يشمل بعض ما يقع قبل الموت؛ كأشراط الساعة وما يحصل للميت عند حالة الاحتضار[188].

[188] انظر شرح العقيدة الواسطية للشيخ محمد بن صالح العثيمين (1/ 68)

وهذا ثابت بالكتاب والسنة وإجماع المسلمين، بل إجمـــاع اليهـــود والنصـــارى، حيـــث يقـــرون بأن هناك يوماً يبعث الناس فيه ويجازون:

يقول الله عز وجل: ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّـــي لَتُبْعَـــثُنَّ ثُـــمَّ لَتُنَبَّـــؤُنَّ بِمَـــا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[189]

وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ () ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾[190]

ودلت الحكمة على تحقيق البعث بعـــد المـــوت، وأنـــه لـــولا البعـــث لكـــان خلـــق الســـموات والأرض للعبث؛ إذ كان يكون الإيجاد والإعدام والبناء للهدم بـــلا عاقبـــة وذلـــك ســـفه وتعـــالى الله أن يكون صنعه سفها.

---

[189] سورة التغابن، الآية 7.

[190] سورة المؤمنون، الآية 15-16.

- **دور الإنسان ثلاث:**

إن الله سبحانه جعل الدور ثلاثا:

- دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار، وجعل لكل دار أحكاما تختص بها، وركب هذا الإنسان من بدن ونفس، وجعل أحكام دار الدنيا على الأبدان والأرواح تبعا لها، ولهذا جعل أحكامه الشرعية مرتبة على ما يظهر من حركات اللسان والجوارح وإن أضمرت النفوس خلافه.
- وجعل أحكام البرزخ على الأرواح والأبدان تبعا لها، فكما تبعت الأرواح الأبدان في أحكام الدنيا فتألمت بألمها والتذت براحتها وكانت هي التي باشرت أسباب النعيم والعذاب، فأحكام البرزخ على الأرواح فتسري إلى أبدانها نعيما أو عذابا؛ كما تجرى أحكام الدنيا على الأبدان فتسري إلى أرواحها نعيما أو عذابا.

وقد أرانا الله سبحانه بلطفه ورحمته وهدايته من ذلك أنموذجا في الدنيا من حال النائم فإن ما ينعم به أو يعذب في نومه يجري على روحه أصلا والبدن تبع له، وقد ترى النائم يقوم في نومه ويضرب ويبطش ويدافع كأنه يقظان وهو نائم لا شعور له بشيء من ذلك، وذلك أن الحكم لما جرى على الروح استعانت بالبدن من خارجه.

فإذا كانت الروح تتألم وتتنعم ويصل ذلك إلى بدنها بطريق الاستتباع فهكذا في البرزخ؛ بل أعظم، فإن تجرد الروح هنالك أكمل وأقوى، وهي متعلقة ببدنها لم تنقطع عنه كل الانقطاع.

- إذا كان يوم حشر الأجساد وقيام الناس من قبورهم صار الحكم والنعيم والعذاب على الأرواح والأجساد ظاهرا باديا أصلا.

ومتى أعطيت هذا الموضع حقه تبين لك أن ما أخبر به الرسول من عذاب القبر ونعيمه وضيقه وسعته وضمه وكونه حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة مطابق للعقل، وأنه حق لا مرية فيه، وإن من أشكل عليه ذلك فمن سوء فهمه وقلة علمه أتي، كما قيل:

وكم من عائب قولا صحيحا --- وآفته من الفهم السقيم[191]

---

[191] انظر كتاب " الروح " لابن القيم (ص 63-64)

- **من ثمرات الإيمان باليوم الآخر:**

- الحرص على طاعة الله تعالى رغبة في ثواب ذلك اليوم، والبعد عن معصيته خوفاً من عقاب ذلك اليوم.
- استقامة العبد وكمال إحسانه إلى الخلق احتسابا الأجر غدا.
- تسلية المؤمن عما يفوته من نعيم الدنيا ومتاعها بما يرجوه من نعيم الآخرة وثوابها.

الركن السادس: الإيمان بالقدر خيره وشره.

الإيمان بالقدر أن تؤمن بأن الله سبحانه وتعالى – قد قدر كل شيء كما قال تعالى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾[192]

وهذا التقدير الذي قدره الله– عز وجل – تابع لحكمته، وما تقتضيه تلك الحكمة من غايات حميدة وعواقب نافعة للعباد في معاشهم ومعادهم.

ويدور الإيمان بالقدر علي الإيمان بأربع مراتب:

المرتبة الأولى: الإيمان علم الله المحيط بكل شيء، المحيط بكل شيء مما مضى، ومما هو حاضر، ومما هو مستقبل، سواء كان ذلك مما يتعلق بأفعاله – عز وجل – أو بأفعال عباده، فالله محيط بها جملة وتفصيلاً بعلمه الذي هو موصوف به أزلاً وأبداً.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾[193]

وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾[194]

---

[192] سورة الفرقان، الآية 2.

[193] سورة النساء، الآية 32.

[194] سورة الطلاق، الآية 12.

المرتبة الثانية: الإيمان بأن الله – سبحانه وتعالى– كتب مقادير كل شيء إلى أن تقوم الساعة، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[195] وهو اللوح المحفوظ.

المرتبة الثالثة: الإيمان بأن كل ما في الكون فإنه بمشيئة الله، فكل ما في الكون فهو حادث بمشيئة الله – عز وجل – سواء كان ذلك مما يفعله هو – عز وجل – أو فيما يفعله المخلوق، قال الله – تعالى– :

﴿ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾[196] وقال – تعالى–: ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾[197]

المرتبة الرابعة: الإيمان بأن الله – تعالى– خالق كل شيء، فالله عز وجل هو الخالق، وما سواه مخلوق، فالمخلوقات مخلوقة لله عز وجل، وما يصدر منها من أفعال وأقوال مخلوقة لله أيضاً؛ لأن أفعال الإنسان وأقواله من صفاته، فإذا كان الإنسان مخلوقاً كانت صفاته أيضاً

[195] سورة الحج، الآية 70.
[196] سورة إبراهيم، الآية 27.
[197] سورة التكوير، الآية 29.

مخلوقة لله عز وجل، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[198] هذه أربع مراتب لا يتم الإيمان بالقدر إلا بالإيمان بها.

تنبيهات تتعلق بالقدر:

- لا يجوز الاحتجاج بالقدر على المعصية، فالإنسان قادر مخير وليس بمجبر في ما يتعلق بالأوامر الشرعية التي يترتب عليها الثواب أو الإثم.

- لا تنافي بين الإيمان بالقدر والأخذ بالأسباب، فالقدر غيب لنا، وهو علم الأزلي المحيط جميع الحوادث، والعبد له خيار وقدرة يتمكن بهما من الفعل والترك.

- لا يلزم من كون سبق علم الله بالحوادث الجارية أن كون مجبرا للعباد على فعل تلك الحوادث المعلومة له؛ إذ يلزم من ذلك أن يكون مجبرا لنفسه على أفعاله سبحانه لسبق علمه بها، والعبد نفسه قد يسبق علمه ببعض أفعاله في المستقبل ولا يكون مجبرا نفسه إذا قام بها.

- يجب التفريق بين مشيئة الله للشيء وحبه له شرعا، فالإرادة نوعان:
  - إرادة كونية لا يلزم منها الرضا ولا بد فيها من وقوع المراد.

---

[198] سورة الصافات، الآية 96.

- وإرادة شرعية لا يلزم منها وقوع المراد ويكون فيها المراد محبوبا شرعا.

- لا يعني وصف القدر بالشر أن يكون الله فاعلا للشر، بـــل الشـــر في مفعولـــه المقضـــي لا في فعله، وذلك الشر في المفعول لا يكون شرا محضا من جميع الأوجه؛ لكنـــه يكـــون خـــيرا مـــن بعض الوجوه، فهو شر نسبي[199].

[199] يراجع في الموضوع كتاب الإمام ابن القيم (شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل)

- **من ثمرات الإيمان بالقدر:**

أولاً: الاعتماد على الله تعالى عند فعل الأسباب، لأن السبب والمسبب كلاهما بقضاء الله وقدره.

ثانياً: راحة النفس وطمأنينة القلب، لأنه متى علم أن ذلك بقضاء الله تعالى، وأن المكروه كائن لا محالة، ارتاحت النفس واطمأن القلب ورضي بقضاء الرب، فلا أحد أطيب عيشاً وأريح نفساً وأقوى طمأنينة ممن آمن بالقدر.

ثالثاً: طرد الإعجاب بالنفس عند حصول المراد، لأن حصول ذلك نعمة من الله بما قدّره من أسباب الخير والنجاح، فيشكر الله تعالى على ذلك ويدع الإعجاب.

رابعاً: طرد القلق والضجر عند فوات المراد أو حصول المكروه، لأن ذلك بقضاء الله تعالى الذي له ملك السموات والأرض وهو كائن لا محالة، فيصبر على ذلك ويحتسب الأجر، وإلى هذا يشير الله تعالى بقوله: ﴿ مَـآ أَصَـابَ مِـن مُّصِـيبَةٍ فِي الأرض وَلاَ فِي أَنفُسِـكُمْ إِلاَّ فِي كِتَـابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[200] [201]

---

[200] سورة الحديد، 22-23.

[201] انظر عقيدة أهل السنة للشيخ ابن العثيمين.

المرتبة الثالثة من مراتب الدين: الإحسان:

وهو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تك تراه فإنه يراك.

وهذه المرتبة هي غاية الإحسان؛ مع الخالق ومعه الخلق. لأننا إذا استصحبنا المفهوم العام لعبادة الله يتبين لنا أن هذه الحالة التي يكون عليها العبد في هذه المرتبة تشمل تعامله مع الخلق كما هو من خالقه، وذلك يقتضي مراقبة العبد ربه في سائر أحواله الظاهرة والباطنة.

الدليل على هذا التقسيم هو حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه و سلم ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه و سلم، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه، وقال: « يا محمد أخبرني عن الإسلام »

فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: ((الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله صلى الله عليه و سلم، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا))

قال: « صدقت، فأخبرني عن الإيمان »

قال: ((أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورســـله، واليـــوم الآخـــر، وتـــؤمن بالقـــدر؛ خـــيره وشره))

قال: « صدقت، فأخبرني عن الإحسان »

قال: ((أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)) الحديث[202].

[202] رواه مسلم في صحيحه: باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان...، رقم (8)

- من هو المسلم ؟

المسلم هو كل من اتخذ الإسلام دينا؛ فقبل تعاليمه والتـزم تشـريعاته في حياتـه فهـو مسـلم؛ كائنا من كان، له ما للمسلمين، وعليه ما على المسلمين.

قال الله تعالى: ﴿ بلى من أسلم وجهه لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِن ﴾ بين بهـذه الآيـة حـال المسـلم بأنـه من اجتمع فيه أمران:

- إخلاص دينه وعمله لله وحده لا شريك له.

- الإحسان في عمله؛ فيما بينه وبين ربه، وما بينه بين الخلق.

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾

فبين الله أنه لا دينَ أحسنُ من دينِ مَنْ أسلم وجهه لله، وهو محسن غير مسيء.

ولفظ (أسلم) يتضمن شيئين: أحدهما الإخلاص، والثاني الاتباع والإذلال.

كما أن (أسلم) إذا استُعْمِل لازمًا مثل: ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِـنْ ذُرِّيَّتِنَـا أُمَّـةً مُسْـلِمَةً لَكَ ﴾ ، وقوله: ﴿ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، يتضمن الخضوع لله والإخلاص له.

وضدّ ذلك إمّا الكبرُ وإمّا الشركُ، وهما أعظم الذنوب، ولهـذا كـان الـدين عنـد الله الإسـلام، فإن دين الله أن نعبده وحده لا شريك له، وهذا حقيقة قول لا إلـه إلا الله، وبـه بُعِثَـتِ الرسـلُ

جميعُها، ومن عبادته وحده أن لا نشرك به، ولا نتكبر عن أمره، فـلا بـدَّ مـن الإيمـان بجميـع كتبه، وجميع رسله، وإلا لم يكن العبد مسلمًا له، ولا مسلمًا وجهه لـه، إذا امتنـع عـن الإيمـان بشيء من كتبه ورسله، وهذا هو الإسلام العام الـذي دخـل فيـه جميـع الأنبيـاء والمرسـلين، وأممهم المتبعين غير المبدِّلين.

ثم إن الإسلام في كل ملة قد يكون بنوع مـن الشـرع والمنـاهج والوجـه والمناسـك، فلما بعث الله محمدًا صلى الله عليه وسـلم، وخـتمَ بـه الرسـل كـان الإسـلام لله لا يـتمُّ إلا بالدخول فيما جاء به من الشرع والمناهج والمناسك، وهو الإسلام الخالص.

وهذا الإحسان الذي وُصف به المسلم يكون في حـق الله، وفي حقـوق عبـاده، فأمـا في حـق الله فبفعل ما أمره به من غير أن يتعلق المأمور به، وأما في حق عبـاده فبفعـل مـا أوجـب لهـم من الإحسان، فالمسلم يجب أن يكون مقصودُه نفع الخلـق، والإحسـان إلـيهم مطلقـا، وهـذا هو الرحمة التي بُعث بها محمد – صلى الله عليه وسلم – في قوله: ﴿ وَمَـا أَرْسَـلْنَاكَ إِلَّـا رَحْمَـةً لِلْعَالَمِينَ ﴾[203] ، وقال النبي – صلى الله عليه وسلم – : ((إنما أنا رحمة مُهدَاةٌ))[204]

203

204 رواه البيهقي في شعب الإيمان، رقم (1339) عن أبي صالح مرسلا، وهو موصول عن أبي هريرة رواه غير واحد؛ منهم القضاعي في مسند الشهاب رقم (1160) وصححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (490)

والرحمة يحصل بها نفع العباد، فعلى العبد أن يقصد الرحمة والإحسان والنفع، لكن للاحتياج إلى دفع الظلم شُرعت العقوبات، وعلى المقيم لها أن يقصد بها النفع والإحسان، كما يقصد الوالد بعقوبة ولده، والطبيب بدواء المريض.

والإسلام لم يأمر إلا بما هو نفع وإحسان ورحمة للعباد، وأن المؤمن عليه أن يقصد ذلك ويريده، فيكون مقصوده الإحسان إلى الخلق ونفعهم.

بهذا البيان يُعرَف بالعقل أن هذا الدين الحق هو أفضل الأديان، لأن الدين هو الخضوع والانقياد والعمل، فلا بد له من شيئين، من مقصودٍ هو المعبود، ووسيلةٍ هي الحركة، فأي معبود يُسَامِي الله ؟

وأي قصدٍ للمعبود خيرٌ من أن يكون القاصد ذليلاً له مخلصا له، لا متكبرا ولا مشركًا به ؟

وأيُ حركةٍ خيرٌ من فعل الحسنات ؟

فبهذا تبين أن من أسلم وجهه لله وهو محسن، فإنه مستحق للثواب، كما تبين أنه لا أحسن منه.[205]

[205] انظر جامع المسائل لابن تيمية (26/6-32)

المطلب الثاني: مقاصد الإسلام.

إن مما قد بَرْهَنَت المحسوسات والتجارب على صدقه وصحته، كما دلت الشرائع والفطر والعقول السليمة عليه: أنه لا صلاح لأمر الخلق الصلاح التام إلا بالدين المنزل من عند الله تعالى.

فإنَّ الدين كله صلاح وإصلاح، وكله دفع للشرور والأضرار، وكله يدعو إلى الخير والهدى، ويحذر من الشر وأنواع الردى، وعند عرض بعض النماذج من تعليماته وتوجيهاته يظهر لكل عاقل منصف صحة هذا، وأنَّ الخلق كلهم مضطرون إليه، وأنَّهُم لا يستغنون عنه حالة من أحوالهم؛ ذلك بأن الدنيا كلها قد جاشت بِمُشكلات الحياة، والبشر كلهم يتخبطون في دياجير الظلمات فيهتدون من وجه واحد، ويضلون من وجوه أخرى، وقد يستقيم لهم أمر من بعض وجوهه، ويقع الانحراف في بقية أنحائه، وهذا ناتج من أحد أمرين:

- إما جهل بما دل عليه الدين وما أرشد إليه،
- وإما مكابرة وغي، ومقاصد سيئة وأغراض فاسدة، حالت

بينهم وبين الصلاح الذي يعرفونه كما هو الواقع كثيرًا [206].

إن السعادة التي جاء الإسلام ليحققها للبشرية لا تتم إلا بحفظ مصالحهم الضرورية من كل خطر يحدق بها، وحملهم على محاسن الآداب ومكارم الأخلاق؛ إذ لا استقرار لمجتمعاتهم بدونها.

والمصالح الضرورية التي بها نظام الدنيا فلاح الآخرة راجعة إلى ثلاثة أمور:

الأول: درء المفاسد، وحاصله: دفع الضرر عن ستة أمور:

الأمر الأول: الدين: فالإسلام جاء بالمحافظة على الدين، وجعله في المقدمة من مقاصده؛ لأن الناس بلا دين صحيح لن يقوموا بالغاية التي من أجلها جيء بهم إلى هذا الكون. وبما أن الإنسان مكون من بدن وروح، وهو حيوان كغيره ببدنه، وإنسان مفضل على غيره بروحه، فإن أراد الحفاظ على إنسانيته لا بد وأن يهتم بحياة روحه كما يهتم بحياة بدنه وأكثر، والروح له غذاء يغذيها كما أن للبدن غذاء يغذيه، فمتى انقطع الغذاء عن أحدهما هلك بلا شك.

[206] الدين الصحيح يحل جميع المشاكل للعلامة السعدي (ص 1)

والإسلام يحافظ على هذه الحياة أكثر حافظه على حياة البدن؛ لأنها أهم، وهذا من مميزات هذا الدين العظيم: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾[207]

وحفظ الدين نفسه يضمن لنا حفظ الأمور الخمسة الآتية: النفس، والعقل، والعرض، والمال، والنسل، وما تفرع عنها، فحفظها من أعظم أهداف الدين.

وإن من حفظ الدين إغلاق جميع الأبواب التي يدخل منها الانحرافات العقدية والفكرية على المجتمع.

وأما ترك الأفكار والعقائد المنحرفة الهدامة تختطف أبناء المجتمع، وتهوي بهم إلى ما تستقذره البهائم من أنواع الضلالات والانحرافات الفكرية والعملية باسم حرية الأفكار!! فلا يتصور من نظام رشيد وصحيح.

نعم ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ﴾[208]

وكذلك: ﴿ قل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾[209]

---

[207] سورة الأنفال، الآية 24.

[208] سورة البقرة، الآية 256.

[209] سورة الكهف، الآية 29.

إلا أن ذلك لا يعنى إطلاق الصراح للأفكار والنظريات الهدامة لتغزو المجتمع، ولكن على النظام أن يسعى لغرس العقيدة الصحيحة في نفوس أبناء المجتمع، وأن يقف حيلولة دون انحرافهم في العقيدة والفكر؛ لأن الدين هو أنفس ما يملكونه، فإذا لم يحفظها لهم فماذا يحفظ ؟!

الأمر الثاني: الأنفس:

وقد شرع الإسلام القصاص محافظة على الأنفس، وصونا لها من أن تذهب هدرا: ﴿ ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب ﴾[210] ﴿ كتب عليكم القصاص في القتلى ﴾[211] ﴿ ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا ﴾[212] ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما ﴾[213]

فالنظام الإسلامي أكمل في هذا الباب من أي نظام على وجه الأرض.

[210] سورة البقرة، الآية 179.
[211] سورة البقرة، الآية 178.
[212] سورة الإسراء، الآية 33.
[213] سورة النساء، الآية 29.

ومن الطريف أن تجد الذين ينادون بضرورة فصل الدين عن النظـام لشـأن المجتمـع، ويلصـقون بالإسلام ألوانا من التهم لمحافظته على نظامه، في الوقت الـذي ينـادون فيـه بحقـوق الإنسـان وحريتـه، تجـدهم يبيـدون الشـعوب ويعتـدون عليهـا دون أي حـق. وتجدهم يبررون جرائمهم بدعوى "الحرية" و "حقـوق الإنسـان " إلا أن الإنسـان الـذي لـه هذا "الحق" وهذه "الحرية" إنسان خاص عندهم، وليس كل إنسان.

وتفسيرهم للحرية والحقوق إنما هـو بمـا يتمشـى وأهـوائهم، لا العـدل والمسـاواة. والحرية التي يزعمونها في بلدانهم إنما هي لامبالاتية وهمجيـة تنبـئ بفشـل أنظمتـهم في سياسـة أمور الناس وتربية المجتمع على مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب.

ومن المعلوم أن من أكبر مقاصد وضع الأنظمـة ورسـم السياسـات وتشـكيل الحكومـات أن تحفظ للمجتمعات حياتها وأمنها وتطورها نحـو الأفضـل والأكمـل في الماديـات والمعنويـات، وليس أن تصل بها في الماديات إلى القمر، ثم تخر بها في المعنويات إلى أسفل السافلين.

الأمر الثالث: العقول:

و الإسلام جاء بالمحافظة على عقول البشر بأحسن السبل وأجود والوسائل: ﴿ يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴾[214]

وفي الحديث : ((كل مسكر حرام، وما أسكر كثيره فقليله حرام))[215]

قال الله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[216]

والتفضيل إنما كان بالعقل الذي هو عمدة التكليف وبه يعرف الإنسان ربه، ويفهم كلامه ويوصل إلى نعيمه وتصديق رسله؛ إلا أنه لما لم ينهض بكل المراد من العبد بعثت الرسل وأنزلت الكتب، فمثال الشرع الشمس، ومثال العقل العين، فإذا فتحت وكانت سلمية رأت الشمس وأدركت تفاصيل الأشياء، وقد جعل الله في بعض الحيوان خصالا يفضل بها

---

[214] سورة المائدة، الآية 90.

[215] أخرجه البخاري في صحيحه: باب من انتظر حتى تدفن، رقم (4343) ومسلم في صحيحه: بيان أن كل مسكر خمر وأن كل خمر حرام، رقم: (1733)

[216] سورة الإسرا، الآية 70.

ابن آدم أيضا؛ كجري الفرس وسمعه وإبصاره وقوة الفيل وشجاعة الأسد وكرم الديك، وإنما التكريم والتفضيل بالعقل[217].

ففي الحفاظ على العقل البشري ما يضمن للإنسان مكانته ورفعته، ولأن الغايات السامية والمقاصد العظيم التي جاء الإنسان ليحققها في هذا الكون تضيع بضياع العقل.

ومن العجب أن ترى من يدعي أنهم أكمل الناس عقلا، وقد أهانوا هذا العقل البشري كل إهانة، وعطلوا دوره في حياة الناس؛ بإباحة المسكرات وغيرها مما يعتدي على العقل البشري.

---

[217] انظر تفسير القرطبي (254/10)

الأمر الرابع: النسل:

للمحافظة عليه شرع الإسلام النكاح ونظمه على أحسن وجه، وحرم كل ما يعتدى به على النسل البشري ليبقى طهرا شريفا، وصيانة له من الانحلال والانقراض؛ لأن ببقاءه بقاء المجتمع البشري: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾[218]

فكم فى الزنا من استحلال محرمات وفوات حقوق ووقوع مظالم !

ومن حفظ الإسلام للنسل اهتمامه بصلاح المرأة، لأنها حضن النسل البشري ومستقره، فلا حفظ للنسل دون صلاحها.

فما شرعه الإسلام من أحكام تختص المرأة إنما هو راجع إلى مكانتها الحساسة في البناء الاجتماعي، والمقصد من كل حكم خصها الإسلام به يرمي إلى حفظها وصيانتها من الانحلال وصيرورتها آلة لإطفاء الغريزة الجنسية وتسلية القلوب المريضة.

إن المرأة نفيسة ضعيفة، فالنفيس يحفظ، والضعيف يمنع. وأما الجاهل القاصر الذي لم ينفذ نظره إلى المقاصد الجليلة من رواء تلك الأحكام، فإنه يسيء تفسيرها وتوجيهها، ويحمله قصوره على الاستخفاف بها والازدراء، ولو أنه رمق جزء يسيرا مما يتولد من تلك من الأحكام من الحفاظ على أخلاق المجتمع واستقراره لسلم لها تسليما.

---

[218] سورة الإسراء، الآية 32.

ولا ينقضي العجب من قوم يحافظون على أنساب الحيوان الخسيس وبقاءه، ويقضون على أنساب البشر الشريف بالعديد من الأساليب والوسائل التي تهدد بقاءه !! فأباحوا اللواط والدعارة وجميع أنواع الشذوذ الجنسي الذي يترفع عن بعضه الحيوانات، بل الجنس لا يعدو عندهم متعة لقضاء الشهوة الحيوانية فحسب، وعلى أي طريق كان.

ومعلوم أنه ضروري للأنظمة التي تسعى للحفاظ على النسل البشري أن توجه المجتمع بكامله نحو النمط الذي يساعد على حفظ النسل البشري لا على ضياعِهِ وانقراضِه. وليس من ذا القبيل في شيء ما هو عند بعض دول الغرب؛ حيث أباحوا للرجل المتزوج الكونَ مع أية امرأة يشتهيها؛ دون أدنى رابط من روابط النكاح، بل هو زنا وسفاح، ولو أراد أن يتزوجها لتكون زوجة ثانية لأقاموا عليه الدنيا؛ أي اصنعوا كل شيء إلا النكاح!!!

أيساعد مثل هذا النظام على حفظ صلاح المجتمع ؟

نظام يرضى للمرأة أن يصل بها الذل والهوان إلى أن تتاجر بنفسها، ولا يرضى لها أن يجمعها زوجها بامرأة أخرى في نكاح حلال تتبادل فيها الحقوق والمسئوليات؛ بموافقة من جميع الأطراف !

ومن أجل الحفاظ على النسل منع الإسلام من الاعتداء على الأولاد بالقتل أو غيره، وذلك منذ كونه إنسانا؛ بأن ينفق فيه الروح وهو في بطن أمه، فإنه إنسان له ما لغيره من حقوق؛ خلافا لمن لا يقيم له حقا إلا في حالة ما بعد الولادة: ﴿ ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ﴾[219]

﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئاً كبيراً ﴾[220]

---

[219] سورة الأنعام، الآية 151.
[220] سورة الإسراء، الآية 31.

الأمر الخامس: الأعراض:

عرض الإنسان هو كل ما يعتبر ذكره بالحسن ثناء ومدحا، إذا ذكر بسوء كان ذما وقدحا، وللمحافظة عليه شرع الإسلام جلد القاذف ثمانين جلدة: ﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمنين جلدة ﴾[221] ومتى فقد هذا التأديب في الناس اُنتهكت أعراضهم بلا ورع، وتُجرئ عليها بدون حق.

وكذلك حرم الإسلام الغَيبة والبَهت، والاستطالة على أعراض الناس بجميع أنواعها، صونا لعرض الإنسان من التدنيس، وفي ذلك حفظ لكرامة الإنسان وجاهه، وتحصل بهذا مصالح كثيرة للمجتمع البشري كالأمن والأمان بين أفرادها.

---

[221] سورة النور، الآية 4.

الأمر السادس: الأموال:

المال بمفهومه الواسع يراد به جميع الخيرات المادية المباحة بمختلف أنواعها، والإسلام يعتبر المال من الأسس التي يقوم عليها عيش الناس على الأرض، فإنه قوام الحياة، وبالتالي يتحم حسن التصرف فيه وتبادله كيلا ينقلب عامل تصنيف لأبناء المجتمع إلى: طبقة تحتجر حق الانتفاع بالمال ومداولته بينها، وأخرى تسيل عليه لعابها ويكون نصيبها منه أهون من عرق جبينها.

وقول تعالى: ﴿ ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما ﴾[222] قاعدة كلية تقتضي النهي عن السفه - التصرف السيئ — في المال بجميع أنواعه، والسفيه هو من لا يحسن التصرف فر المال وتدبيره، وكون الإسلام يحجره عن ماله ذروة في حفظ المال من التلف والضياع.

فالنظام المالي الإسلامي هو الكفيل الوحيد للناس الحفاظ على أموالهم. وأقرب مصداق لذلك أنه أمر بالحجر على الإنسان من التصرف في ماله إذا كان تصرفه مضرا به أو بغيره، وذلك لأن الضرر الناجم من تصرفه أكثر من نفعه، وشره أكبر من خيره، فحَجَر عليه

---

[222] سورة النساء، الآية 5.

الشارع حجراً للتصرف في ميدان المصالح، وإرشادا للعبـاد أن يسـعوا في كـل تصـرف نـافع غير ضار.[223]

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ ﴾224

ففيه النهي عن تعاطي الأسباب المحرمة في اكتساب الأموال، وحث على المتاجر المشروعة التي تكون عن تراض من البائع والمشتري.

وهذه المصالح الضرورية تضيع إذا لم يكن للناس نظام يتكفل لهم الحفاظ عليها.

---

[223] انظر الدرة المختصرة في محاسن الدين الإسلامي: (ص 30)

[224] سورة النساء، الآية 29.

الأمر الثاني: جلب المصالح، وهذه المصالح على مراتب ينضـوي تحتـها جميـع المصـالح المتبادلـة بين العباد؛ كالمآكـل، والمشـارب، والملابـس، والمنـاكح، والبيـوع، والإجـارات وغيرهـا. وهذه المصالح أيضا قد حافظ عليها النظام السياسي الإسـلامي حـق المحافظـة؛ لأن لا يسـتغنون عنها في تعايشهم، ودراسة الفقه الإسلامي تحمل على القطع بذلك؛ لأنـه لم يتـرك جزئيـة مـن هذه المعاملات إلا وفصلها تفصيلا.

فقد أباحت الشريعة الإسلامية البيوع، والإجـارات، والشـركات، وأنـواع المعـاملات الـتي تتبـادل فيهـا المعوضـات بـين النـاس في الأعيـان والـديون والمنـافع وغيرهـا. والشريعة الإسلامية جاءت بحل هـذا النـوع وإطلاقـه للعبـاد؛ لاشـتماله علـى المصـالح في الضروريات والحاجبات والكماليات، وفسحت للعباد فسحاً صـلحت بـه أمـورهم وأحـوالهم، واستقام معايشهم.

وشرطت الشريعة في حل هذه الأشياء الرضا مـن الطـرفين، واشـتمال العقـود علـى العلم، ومعرفة المعقود عليه، وموضـوع العقـد، ومعرفـة مـا يترتـب عليـه مـن الشـروط. ومنعـت مـن كـل مـا فيـه ضـرر وظلـم مـن أقسـام الميسـر والربـا والجهالـة. فمن تأمل المعاملات الشرعية، ورأى ارتباطها بصلاح الـدين والـدنيا، شـهد لله بسـعة الرحمـة

وتمام الحكمة، حيث أباح لعباده سبحانه جميع الطيبات؛ من مكاسب ومطاعم ومشارب، وطرق المنافع المنظمة المحكمة.[225]

حديث واحد يكفي في جعل معاملات الناس على الخير والصلاح، وهو قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما))[226]

أي صدق البائع في إخبار المشترى، وبين العيب إن كان في السلعة، وصدق المشتري في قدر الثمن، وبين العيب إن كان في الثمن، ويحتمل أن يكون الصدق والبيان بمعنى واحد وذكر أحدهما تأكيد للآخر.[227]

فهذا الحديث قاعدة كلية مطردة في جميع معاملات الناس، وليس متقيدا باب البيع فحسب، بل يجب أن تنبني المعاملات كلها على هذين الأصلين العظيمين، ولو أن الناس التزموا بهذه القاعدة العظيمة لصلحت جميع معاملاتهم[228]

---

[225] المصدر نفسه: (22-24)

[226] رواه البخاري (2079)، ومسلم (1532)

[227] انظر فتح الباري لابن حجر (386/4)

[228] انظر فتاوى أركان الإسلام للشيخ ابن العثيمين رحمه الله.

الثالث: التحلي بمكارم الأخلاق، والجري على محاسن العادات: ومن فروعه تحريم المستقذرات، وما شرعه بين الخلف من الحقوق التي هي صلاح وخير وإحسان وعدل وقسط وترك للظلم، قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق))[229]

ومن ذلك الحقوق التي أوجبها وشرعها للوالدين، والأولاد، والأقارب، والجيران، والأصحاب، والمعاملين، ولكل واحد من الزوجين على الآخر. وكلها حقوق وضروريات وكماليات، تستحسنها الفطر والعقول الزاكية، وتتم بها المخالطة، وتتبادل فيها المصالح والمنافع، وبحسب حال صاحب الحق ومرتبته. وكلما فكرت فيها رأيت فيها الخير وزوال الشر، ووجدت فيها من المنافع العامة والخاصة، والإلفة وتمام العشرة: ما يشهدك أن هذه الشريعة كفيلة بسعادة الدارين. وترى فيها هذه الحقوق تجري مع الزمان والمكان والأحوال والعرف، وتراها محصلة للمصالح، حاصلا فيها التعاون التام على أمور الدين والدنيا، جالبة للخواطر، مزيلة للبغضاء والشحناء.

[229] رواه أحمد في المسند (8952) والبيهقي في الشعب (7609)

وكل هذه المصالح لا يكون شيء أشد محافظة عليها بالطرق الحكمية السليمة من دين الإسلام.

فتبين بهذا أن اتباع سياسة الإسلام كفيل للمجتمع بجميع مصالحه.[230]

وكذلك الحدود التي شرعها الإسلام وينظر إليها البعض نظرة قاصرة؛ حيث لم يجاوز نظره موضع الألم من جسم الجاني بغض النظر عن المصالح المترتبة عليها؛ من إقامة العدل ومجازاة الظالم وردعه، وكبح الطامعين في الإتيان بمثل جريمته عنه، وغير ذلك كثير. ذلك لأن الجرائم والتعدي على الحقوق من أعظم الظلم الذي يخل بالنظام، ويختل به الدين والدنيا، فوضع الشارع للجرائم والتجرئات حدودا تردع عن مواقعتها، وتخفف من وطئتها، من القتل، والقطع، والجلد، وأنواع التعزيرات التي ليست غايات، وإنما هي وسائل يحافظ بها على حياة الناس ومصالحهم.

---

[230] انظر رسالة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي (الإسلام دين كامل)

ومعلوم أنه إذا تعارضت المصلحة العامة والمفسدة الخاصة فالعقل يقدم المصلحة العامة؛ خاصة إذا لم تكن تلك المفسدة مقصودة لذاتها، ومثله قطع اليد المتآكلة إلى توقف عليه حفظ النفس، فالقطع من حيث هو قطع ضرر ومفسدة، وهو مصلحة من حيث أنه وسيلة لحفظ ما هو أنفع وأنفس وهو حياة النفس.[231] وإن من القصور أو التقصير أن لا يتجاوز الناظر ببصر محل إصابة البدن بألم الحد الذي وضعه الإسلام، وليس ذلك الحد مقصودا لذاته، وإنما هو مقصود لغيره؛ لما يتوسل به إليه من تحقيق مصالح وحفظها على المجتمع الإنساني.

وقد أشار الله إلى هذه الغايات الشامخة من رواء ما شرعه من حدود بقوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾[232] فإنما تنحقن الدماء بما شرع لكم من القصاص، وتنقمع به الأشقياء، لأن من عرف أنه مقتول إذا قتل، لا يكاد يصدر منه القتل، وإذا رئي القاتل مقتولا انذعر بذلك غيره وانزجر، فلو كانت عقوبة القاتل غير القتل، لم يحصل انكفاف الشر، الذي يحصل بالقتل، وهكذا سائر الحدود الشرعية، فيها من النكاية

[231] انظر كتاب قواعد الأحكام في مصالح الأنام لعز الدين ابن عبد السلام (32/1)
[232] سورة البقرة، الآية 79.

والانزجار، ما يدل على حكمة الحكيم الغفار، ونكَّر (الحياة) فقال: ﴿ حياة ﴾ لإفادة التعظيم والتكثير.

ولما كان هذا الحكم، لا يعرف حقيقته، إلا أهل العقول الكاملة والألباب الثقيلة، خصهم بالخطاب دون غيرهم، وهذا يدل على أن الله تعالى، يحب من عباده، أن يعملوا أفكارهم وعقولهم، في تدبر ما في أحكامه من الحكم، والمصالح الدالة على كماله، وكمال حكمته وحمده، وعدله ورحمته الواسعة، وأن من كان بهذه المثابة فقد استحق المدح بأنه من ذوي الألباب الذين وجه إليهم الخطاب، وناداهم رب الأرباب، وكفى بذلك فضلا وشرفا لقوم يعقلون.[233]

قال أبو العالية: جعل الله القصاص حياة، فكم من رجل يريد أن يقتل، فتمنعه مخافة أن يقتل.[234]

[233] تفسير السعدي (ص 84)
[234] تفسير ابن كثير (492/1)

هذا، والإسلام قد وضع فيما شرعه للعباد سياجا وموانـع تحـول دون انتـهاك المحرمـات، وذلك يقلل حصول موجبات إيقاع الحد بهم، وإذا بدر ما يوجـب حـدا مـن أحـد فـلا بـد كذلك من التحقق من توفر شروط إقامته عليه وانتفاء موانعه.

كل هذه فيها من المنافع والمصالح الخاصة والعامة ما يعرف بـه العاقـل حسـن الشـريعة الإسلامية وكمالها، وأن الشرور لا يمكن أن تقاوم وتـدفع دفعـا كـاملا إلا بالحـدود الشـرعية التي رتبها الشارع بحسب الجرائم قلة وكثرة، وشدة وضعفا.[235]

وبدون حفظ هذه المصالح وحماية من اعتداء المعتـدين لا يسـتقر للإنسـان حيـاة علـى وجـه الأرض ولا يطيب له فيها عيش.

---

[235] انظر الدرة المختصرة: (29)

من مزايا الدين الإسلامي:

كل من درس الدين الإسلام دراسة هادفة صحيحة أطلعته دراسته على مـا للإسـلام مـن مزايـا وخصائص لا توجد في غيره من الأديان أو الأنظمة المتبعـة علـى وجـه الأرض، فكونـه دينـا يتسم بالتوازن والشمولية مع الوسطية شيء لا ينفيه إلا مكـابر أو جاهـل بحقيقـة هـذا الـدين وشريعته.

الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العبـاد في المعـاش والمعـاد، وهـي عـدل كلها ورحمة كلها، ومصالح وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عـن العـدل إلى الجـور وعـن الرحمة إلى ضدها وعن المصلحة إلى المفسدة وعـن الحكمـة إلى العبـث فليسـت مـن الشـريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل.

فالشريعة عدل الله بين عباده ورحمته بين خلقه وظله في أرضـه وحكمتـه الدالـة عليـه وعلى صدق رسوله صلى الله عليه وسلم أتم دلالة وأصـدقها، وهـي نـوره الـذي بـه أبصـر المبصرون، وهداه الذي به اهتدى المهتدون، وشفاؤه التام الذي بـه دواء كـل عليـل، وطريقـه المستقيم الذي من استقام عليه فقد استقام علـى سـواء السـبيل، فهـي قـرة العيـون وحيـاة

القلوب ولذة الأرواح، فهي بها الحياة والغذاء والدواء والنور والشفاء والعصمة[236].

وأسرد في هذا الموطن جملة من مزايا الدين الإسلامي تؤكد هذه الحقيقة:

- أن الإسلام دين مترل من عند الله، وذلك أكسبه الكمال في جميع الجوانب؛ لأن ما هو مستنتج من العقل الإنساني البحت فهو معرض للخطأ والصواب بخلاف دين أنزله الله إلى عباده لتستنير به عقولهم سبيلهم إلى تحقيق سعادة الدارين.
- أن الإسلام دين الفطرة، تنسجم أسسه ومبادئه والفطرة الإنسانية السليمة؛ لأن الإنسان مجبول على الإيمان بخالقه وقصده بالتذلل والتعظيم وحده لا شريك له، وذلك هو الإسلام.

فالقلب مخلوق حنيفا مفطورا على فطرة الإسلام، وهو الاستسلام لله دون ما سواه. والإنسان بفطرته لا يريد أن يعبد إلا الله، فلا يطمئن قلبه ويحصل لذته وفرحه وسروره إلا بأن يكون الله هو معبوده دون ما سواه، وكل معبود دون الله يوجب الفساد، لا يحصل به صلاح القلب وكماله وسعادته المقتضية لسروره ولذته وفرحه[237].

---

236 إعلام الموقعين لابن القيم (3/3)

237 انظر جامع الرسائل: (253/5) لشيخ الإسلام ابن تيمية.

وهذا المبدأ تقر به جميع الفطر وتنجذب إليه بشتى الوسائل والأشكال، تحتاج فيها إلى نور يضيء لها السبيل إليه، فمن هنا تظهر مهمة الرسل عليهم الصلاة والسلام.

والمعنى الآخر لفطرية الإسلام: أن الله جعل تشريعاته وحدد أحكامه بحيث تتناسب مع الطبيعة البشرية، فإنه يتواءم مع كافة الأحوال التي تطرأ على الإنسان طول حياته.

قال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا () قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴾[238]

وذلك لأن الجنسُ إلى الجنسِ أميلُ، والشكلُ بالشكلِ آنسُ، فإن الله تعالى بعث إليهم رسولا من جنسهم، ليفقهوا عنه ويفهموا منه، لتمكنهم من مخاطبته ومكالمته، ومتابعته والاقتداء به، ولو بعث إليهم البشر رسولا من الملائكة لما استطاعوا مواجهته ولا الأخذ عنه، ولاعتذروا بذلك عن عدم القبول عنه وترك الاقتداء به، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ

---

[238] سورة الإسراء، الآية 94-95.

الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾[239]، وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾[240] [241]

من الحكم في ذلك أن يكون دين الإسلام دينا إنسانيا يساير واقع الإنسان وتقلباته؛ لأن الرسول عاش يطبقه بين أظهر الناس يكد مثلهم ويعاني مما يعانون منه: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ ﴾[242]

- أنه دين يحفظ للناس مصالح الدينية والدنيوية، والتي هي أس الصلاح لوجودهم في الدنيا والآخرة. وتقدم التعريج على شيء من جوانب هذه النقطة.
- من مزايا دين الإسلام: أنه دين شامل لجميع جوانب الحياة الإنسانية ومتوازن في ذلك، فإنه لا يركز على جانب ويهمل آخر؛ بل هو يعتني بجاني الجسم ويلبي حاجاته ويحميه، وكذلك ينهض بالروح الإنساني فيغذيه ويزكيه: ((إن قامت الساعة وبيه أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل))[243]

---

239 سورة آل عمران، الآية 164.

240 سورة التوبة، الآية 128.

241 انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير (121/5)

242 سورة الكهف، الآية 110.

243 رواه أحمد في مسنده (12981)

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾[244]

فإنه دين كما يغذي روح الإنسان بالنور الإلهي، ويملأ جوفه الذي لا بد له من أن يمتلئ بمادة خير أو شر، فهو كذلك يسوس علاقاته بالمجتمع في جميع أحوالها.

فمفهوم الدين في الإسلام وكان إن في العلاقة بين الإنسان وخالقه المعبود، فإن تلك العلاقة تتعدى هذه البينية إلى علاقات الإنسان بمجتمعه الذي يعيش فيه، ولأن جريان هذه العلاقة على قانون يضمن للجميع تحقيق المصالح العامة والخاصة، ودرء المفاسد كذلك، وأن ذلك مقصد من مقاصد دينه التي أمر بمراعاتها والسعي لتحصيلها.

ومن الخطأ عزل الدين عن نظامه للحياة؛ بوضع سياسات لا تنبع عن الدين الذي يؤمن به المجتمع، وإنما تكون تابعة لأهواء طبقة منهم، هي التي تتحكم فيها حسب رغباتها وأغراضها الخاصة، فجردوا الدين عن كل معناه.

[244] سورة القصص، الآية 77.

ولذا لما تحقق بعض المفكرين الغربيين أن الإسلام ما زال محتفظا بهذا الجانب قالوا بأنه لا بد وأن يصطدم بالحضارات الأخرى؛ الخاصة الغربية منها، وهي ما يعرف بـ " نظرية صدام الحضارات (The Clash of Civilizations) " والتي شهرها باحثون غربيون منهم الأستاذ صأمويل هنتنجتون فلبس[245].

فإنهم ما ذكروا الإسلام كحضارة يتوقع اصطدامها بغيرها من حضارات العالم إلا لاشتماله على نظام وقانون صالحين لتوجيه مسير المجتمعات.

وما عبروا عنه بالصدام ليس إلا انطوائية الطبقة القائدة في الغرب على نفسها خوفا من أن يصبغ الإسلام حضارتهم ويؤثر فيها، وإلا فليس هناك اصطدام ولا صراع.

---

245 صأمويل فلبس هنتنجتون Samuel Phillips Huntington . أستاذ علوم السياسة بجامعة هارفارد.
ولد 18 أبريل1927 م وتوفي 24 ديسمبر 2008 م المصدر:
(http://ar.wikipedia.org/wiki/صراع_الحضارات)

وهذا الرجل له نظرية سيئة نحو الإسلام، وهو صاحب نزعة محافظة؛ ممن سبقت الإشارة إلى تخوفهم من الإسلام، واعتبارهم انتشاره في الغرب تهديدا للحضارة الغربية.

والذي حملهم على هذه النظرية إنما هو زعمهم أن الإسلام يستعمل القوة لإزالة الحضارات ليحل محلها بعد ذلك، فقالوا إن الإسلام إنما انتشر بتسليط السيف على الأعناق، وهو مقولة يكذبها واقع هذا الدين، ويمجه الذوق السليم.

ويعلم المنصف أنه لا وجه للمقارنة بين أسباب انتشار الإسلام ووسائل البطش والإبادة التي سخرها الغربيون في سبيل بث نفوذهم في العالم والتسلط على الشعوب ماديا وفكريا.

وكذا استشراف الواقع التاريخي لانتشار الإسلام يكشف عن حقيقة اعتناق الناس للإسلام منذ عصر السيرة، وأنه كان يتم في ظروف السلم بنطاق أوسع بكثير من ظروف القتال، فعدد من أسلم بعد الحديبية أضعاف عدد من أسلم قبل الصلح. وقد استمر انتشار الإسلام بعد انحسار سلطانه العسكري والسياسي، وما زال يمتد في العصر الحديث ويدخل فيه الآلاف والآلاف من جميع قارات العالم، فلا شك إذاً في تهافت مقولة إن الإسلام انتشر بالسيف[246].

[246] انظر السيرة النبوية الصحيحة للشيخ أكرم ضياء: (1/337-343)

والذين يتشبثون بهذا الهُراء إنما ألجأهم إليه الهروب من القول بأن الاتساع الواسع، والفتوحات العظيمة التي حققها الدين من البراهين الساطعة على صحته وصلاحه لجميع عصر ومصر، تذوب أمام قوته في العقول قوة النار والحديد.

ويكفيك أن تنظر إلى منبع هذا الدين، وكيف ألف جزيرة العرب على افتراق قلوبها، وكثرة ضغائنها وتعاديها، وكيف ألفهم وجمع قاصيهم لدانيهم، وأزال تلك العداوات، وأحل الأخوة الإيمانية محلها.

ثم اندفعوا في أقطار الأرض يفتحونها قطرا قطرا، وفي مقدمة هذه الأقطار أُمَّةُ فارس والروم؛ أقوى الأمم وأعظمها ملكا، وأوسعها نفوذا، وأشدها قوة، وأكثرها عددا وعدة في ذلك الوقت، ففتحوهما وما وراءها بفضل دينهم، وقوة إيمانهم، ونصر الله ومعونته لهم، حتى وصل الإسلام إلى مشارق الأرض ومغاربها.
فصار هذا يعد من آيات الله، وبراهين دينه، ومعجزات نبيه، وبهذا دخل الخلق فيه أفواجا ببصيرة وطمأنينة، لا بقهر وفتنة.

وإذا نظرت نظرة إجمالية إلى هذا الأمر عرفت أن هذا هو الحق الذي لا يقوم له الباطل مهما عظمت قوته وتعاظمت سطوته.

هذا يعرف ببداهة العقول، ولا يرتاب فيه منصف، وهو من الضروريات؛ بخلاف ما يقوله طائفة من كتاب العصر الذين دفعهم جحدهم للحقائق إلى التفوه بمثل هذا. فزعموا أن انتشار الإسلام وفتوحاته الخارقة للعادة مبني على أمور مادية محضة، وحللوها بمزاعمهم الخاطئة، لأنهم قد أهدروا تأثير الأمر الإلهي في الأمور فراحوا يحللون كل ما يحدث بتحليلات مادية بحتة، وهو غلط بلا شك لأن المحلل لا يهتدي إلى الحق فيما يحلله إلا إذا شمل تحليله جميع جوانبه القضية، أما أن يقصر نظره في جانب فقط دون جوانب فليس بتحليل منصف.

وهم بصفتهم محللين، وإن لم يؤمنوا – أو يحبوا- بالتأثير الإلهي في الأمور، كان عليهم أن يضعوا هذا الجانب تحت الأشعة، و ليس لهم أن يلغوا هذا الجانب نهائيا ويحللوا الأمور بتحليلات مادية يكذب الواقع إمكانها، فهذا تضليل وليس بتحليل.

ومن الغريب تعليل بعضهم انتشار وانتصار الإسلام بضعف دولة الكاسرة ودولة الرومان، وقوة المادة في العرب. وهذا مجرد تصوره كاف في إبطاله.

فأي قوة في العرب تؤهلهم لمقاومة أدنى حكومة من الحكومات في ذلك الوقت ؟ فضلا عن الحكومات الكبيرة الضخمة، فضلا عن مقاومة أضخم الأمم في وقتها على الإطلاق

وأقواها وأعظمها عددا وعدة في وقت واحد؛ حتى مزقـوا الجميـع كـل ممـزق، وحلـت محـل أحكام هؤلاء الملوك الجبابرة أحكام القرآن والدين العادلة، والتي قبلـها وتلقاهـا بـالقبول كـل منصـف مريـد للحـق.

فهل يمكن تفسير هذا الفتح المنتشر المتسع الأرجـاء بتفـوق العـرب في الأمـور الماديـة المحضة ؟

وإنما يتكلم بهذا من يريد القـدح في الـدين الإسـلامي، أو راج عليـه كـلام الأعـداء فيهذي بما لا يدري.

وكل من تأمل سيرة النبي صلى الله عليه وسلم عرف أن اسـتعماله للقـوة لـيس لإكـراه النـاس علـى دينـه قـط: ﴿ لَـا إِكْـرَاهَ فِـي الـدِّينِ قَـدْ تَبَـيَّنَ الرُّشْـدُ مِـنَ الْغَـيِّ ﴾[247] وأنه إنما قاتل من قاتله وأما من هادنه فلم يقاتله مادام مقيما على هدنتـه لم يـنقض عهـده، بـل أمره الله تعالى أن يفي لهم بعهدهم ما استقاموا لـه : ﴿ فَمَـا اسْـتَقَامُوا لَكُـمْ فَاسْـتَقِيمُوا لَهُـمْ

[247] سورة البقرة، الآية 256.

248

ولما قدم المدينة صالح اليهود وأقرهم على دينهم، فلما حاربوه ونقضوا عهده، وبدؤوه بالقتال قاتلهم لتأمين خطرهم.

وكذلك لما هادن قريشا عشر سنين لم يبدأهم بقتال حتى بدأوا هم بقتاله ونقضوا عهده، فعند ذلك غزاهم في ديارهم، وكانوا هم يغزونه قبل ذلك كما قصدوه يوم أحد ويوم الخندق، ويوم بدر أيضاً هم الذين جاءوا لقتاله، ولو انصرفوا عنه لم يقاتلهم. وإذا أحدقنا النظر في التوجيهات التي كان النبي الكريم صلى الله عليه وسلم يمليها على جنوده، والغايات التي كانت نصب عينيه، أيقنا بأن المثل العليا والرغبة في هداية الناس كانت تمثل الروح المهيمنة على دعوته وجهاده. وإن تخفيض الضرائب على سكان المناطق المفتوحة، وإبقاء الأملاك الشخصية والمحافظة على البنية الاقتصادية لها يدل على أنه كان تتحكم في مواقف هذا النبي روح الهداية والإعمار؛ لا الغواية والدمار.

[248] سورة التوبة، الآية 7.

ثم بقاء هذا الدين على توالي النكبات، وتكالب الأعـداء علـى محقـه وإبطالـه بالكلية، من آيات الإسلام، وأنه دين الله الحق، فلو ساعدته قـوة كافيـة تـرد عنـه عـداء العادين وطغيان الطاغين لم يبق على وجه الأرض دين سواه، ولقبله الخلـق مـن غـير إكـراه ولا إلزام، لأنه دين الحق، ودين الفطرة، ودين الصـلاح والإصـلاح، ولكـن تقصـير أهلـه وضعفهم، وتفرقهم، وضغط أعدائهم عليهم هو الذي أوقـف سـيره، وصـبر الأمـر كمـا هو اليوم[249].

- أنه دين يتسم بالعدالة والمساواة بين الناس، فالإسلام لا يعـرف الطبقيـة والعنصـرية؛ بـل يترل الناس منازلهم ولا يبخسهم أشيائهم، فالمكيال الذي يكيـل بـه هـو الإيمـان الصـادق والعامـل الصـالح، فبـذلك يقـدم ويـؤخر، وبـه يرفـع أو يضـع: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[250] ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾[251]

---

[249] الدرة المختصرة في محاسن الدين الإسلام للشيخ السعدي (ص 16)
[250] سورة الحجرات، الآية 13.
[251] سورة النحل، الآية 90.

- أنه دين مصادره مصونة محفوظة؛ تناقله أهله جيلا عن جيل بالأسانيد المتصلة إلى الرسول الموحى إليه صلى الله عليه وسلم، ويمكن التحقق من صحة كل ما ينسب إليه من قول أو عمل أو رأي، وكذا معرفة من هو صحيح التمسك به من غيره.

وهذا منقبة وخصيصة لهذه الأمة دون غيرها من الأمم، فما نقله الثقة عن الثقة حتى يبلغ إلى النبي صلى الله عليه و سلم؛ يخبر كل واحد منهم باسم الذي أخبره ونسبه، وكلهم معروف الحال والعين والعدالة والزمان والمكان، إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم، هذا نقل خص الله تعالى به المسلمين دون سائر أهل الملل كلها، وكان شأن علمائهم كذلك منذ قديم الدهور في المشرق والمغرب والجنوب والشمال، يرحل في طلبه من لا يحصى عددهم إلا خالقهم إلى الآفاق البعيدة ويواظب على تقييده من كان الناقد قريبا منه.

وأما اليهود فلا يمكنهم أن يبلغوا في نقلهم لشريعتهم إلى صاحب نبي أصلا، ولا إلى تابع له، وأعلى من يقف عنده النصارى شمعون ثم بولس ثم أساقفهم؛ عصرا عصرا، هذا أمر لا يقدر أحد منهم على إنكاره.[252]

---

[252] انظر الفصل في الملل لأبي محمد ابن حزم (69/2)

- أنه دين يربي أبناءه على مكارم الأخلاق ومحاسن العادات والقيم: ((أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا)) ((إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق))

فالخلق من أقوى الدعائم التي عليها ينبني المجتمع البشري في وجوده، وزوال الخلق الحسن مهدد لبقاء المجتمع وحسن سيره، والناس بدون الخلق لا تنظمهم سياسة ولا يضبطهم قانون.

نماذج من الأخلاق والقيم التي يربي عليها الإسلام أبناءه:

❖ الرحمة بالخلق: ((الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا أهل الأرض يرحمكم أهل السماء))[253] ((لا تنزع الرحمة إلا من شقي))[254]

لأن الرحمة في الخلق رقة القلب والرقة في القلب علامة الإيمان، فمن لا رقة له لا إيمان له، ومن لا إيمان له شقي، فمن لا يرزق الرقة شقي[255].

[253] رواه أحمد في المسند (33/11) رقم (6494) وأبو داود في السنن (440/4) رقم (4943) والترمذي (323/4) رقم (1924) كلاهما بلفظ قريب من لفظ أحمد.

[254] رواه أحمد في المسند (301/2) رقم (7988) أبو داود في سننه (441/4) رقم (4944) والترمذي في سننه (323/4) رقم (1923)

[255] انظر تحفة الأحوذي للشيخ محمد عبد الرحمن المباركفوري (42/6)

وحقيقة الرحمة إرادة المنفعة، وإذا ذهبت إرادتها من قلب شقِيَ بإرادة المكروه لغيره، ذهب عنه الإيمان والإسلام[256].

❖ التآخي والتساوي فيما بينهم: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[257]

هذا عقد، عقده الله بين المؤمنين، أنه إذا وجد من أي شخص كان، في مشرق الأرض ومغربها، الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، فإنه أخ للمؤمنين، أخوة توجب أن يحب له المؤمنون، ما يحبون لأنفسهم، ويكرهون له، ما يكرهون لأنفسهم، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم آمرًا بحقوق الأخوة الإيمانية: ((لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا يبع أحدكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانًا، المؤمن أخو المؤمن، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره))

---

[256] بواسطة فيض القدير لزين الدين عبد الرؤوف المناوي (962/2) (547/6)

[257] سورة الحجرات، الآية 10.

وقال صلى الله عليه وسلم: ((مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر))

وقال عليه الصلاة والسلام: ((المؤمن للمؤمن، كالبنيان يشد بعضه بعضًا)) وشبك صلى الله عليه وسلم بين أصابعه.

ولقد أمر الله ورسوله، بالقيام بحقوق المؤمنين، بعضهم لبعض، وبما به يحصل التآلف والتوادد، والتواصل بينهم، كل هذا، تأييد لحقوق بعضهم على بعض، فمن ذلك، إذا وقع الاقتتال بينهم، الموجب لتفرق القلوب وتباغضها وتدابرها، فليصلح المؤمنون بين إخوانهم، وليسعوا فيما به يزول شنآنهم[258].

❖ العدالة بين الناس: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ﴾[259] ويدخل في ذلك أمانات الولايات والأموال والأسرار؛ والمأمورات التي لا يطلع عليها إلا الله.

---

[258] انظر تفسير السعدي (ص 800)

[259] سورة النحل، الآية 90.

والحكم بالعدل يشمل الحكم بين الناس في الدماء والأموال والأعراض؛ القليل من ذلك والكثير، على القريب والبعيد، والبر والفاجر، والولي والعدو.

- التعاون على البر والتقوى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾[260]
- التحلي بالصدق وترك الكذب: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾[261]

وقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: ((عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا))[262]

---

[260] سورة المائدة، الآية 2.

[261] سورة التوبة، الآية 119.

[262] رواه مسلم في صحيحه: باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، رقم (2607)

أنه دين يحفظ للإنسان كرامته وسر أفضليته على غيره، ويحميه من الرذائل التي تهينه: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[263]

- أنه دين وسط في جميع تعاليمه: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾[264] والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: ((عليكم القصد))[265] وأصل القصد الاستقامة في الطريق.

وهذه الوسطية من أخص خصائص الدين الإسلامي، فإنه وسط بين القاسي والغالي، ينهى عن الغلو في جميع الأبواب: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ ﴾[266]

---

[263] سورة، الآية 70.
[264] سورة البقرة، الآية 143.
[265] رواه أحمد في المسند (19640)
[266] سورة المائدة، الآية 77.

وفي الحديث: ((أيها الناس إياكم والغلو في دينكم، فإنما أهلك من كان قبلكم بالغلو في الدين))[267]

والغلو هو مجاوزة الحد في الأمر المشروع؛ إما بإخراجه عن حده شرعا، أو بالزيادة فيه على ما حده الشارع، وهذا يستغرق جميع أنواع الغلو في الاعتقادات والأعمال.[268]

ويمكن تقسيم الغلو باعتبار متعلقه إلى أقسام:

1- الغلو في فهم نصوص الكتاب والسنة، وهو من أسس الضلالات.

2- الغلو في العمل؛ فعلا أو تركا.

3- الغلو في اتخاذ المواقف من الناس والحكم عليهم بذم أو مدح.

يجدر التنبيه هنا على أمور مهمة:

- أنه ليس التمسك الصحيح المعتدل بالكتاب والسنة من الغلو في شيء.
- أن المرجع في تحديد مفهوم الغلو والوسطية هو نصوص الشرع وقواعده العامة وليس الهواء والعاطفة.

---

[267] رواه أحمد في المسند (1851) والنسائي في السنن (3057) وابن ماجه في السنن (3029)

[268] انظر اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم لابن تيمية (328/1)

- أن على من يريد معرفة مدى وسطية الإسلام أن يعمد إلى مصادره الأصلية الصحيحة وتاريخه النير ويدرسها بتأن وإنصاف ليتضح له هذه الحقيقة، ولا يصح الحكم على هذا الدين بالغلو والتطرف بسبب ما يصدر من بعض المنتمين إليه بحق أو باطل، وذلك لأن الوسطية نوعان: النوع الأول: الوسطية العامة، وهي الكائنة في أصل الدين وتعاليمه. النوع الثاني: الوسطية الخاصة، وهي التي تكون في الأفراد والجماعات المنتسبة إلى الإسلام، ويحصل فيها من التفاوت بينهم بحسب صحة فهمهم وتمسكهم بتعاليم الإسلام الصحيحة.

ويمكن حصر الأسباب الحاملة على الخروج عن الوسطية إلى الغلو في سبب واحد: هو الجهل، والذي يفضي بصاحبه إلى أمور:

- عدم الإلمام بنصوص الكتاب والسنة الصحيحة.
- سوء التعامل مع نصوصهما؛ باتباع المتشابهات تارة، وأخرى يكون بعدم التوفيق بين جانب دلالات الألفاظ وجانب أصول الشريعة وقواعدها الكبرى[269].

[269] راجع في الموضوع: (بحوث ندوة أثر القرآن الكريم في تحقيق الوسطية ودفع الغلو) لمجموعة من العلماء/ وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية.

- الاندفاع مع العواطف كلما ثارت بسبب من الأسباب، والعواطف إذا لم يكبحها صاحبها بدين وعقل صارت عواصف، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾[270]

- ومن خصائص الدين الإسلامي: قوة نظامه الاقتصادي[271]: فبما أن المال قوام حياة الناس على الأرض، فقد منحه النظام الذي عليه ينبني تعامل الناس به، وأرساه على الوضوح والقسط للحفاظ على مصلحة الطرفين المتعاملين، فنظم وقنن العقود التي تحقق للناس مصالحهم، وبها يتبادلون المنافع والخيرات؛ لأن ذلك من ضروريات حياتهم على وجه الأرض: ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾[272] في هذه الآية تنبيه على حكمة الله تعالى في تفضيله بعض العباد على بعض في الدنيا: ﴿ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾ أي: ليسخر بعضهم بعضا، في الأعمال والحرف والصنائع.

---

[270] سورة الإسراء، الآية 36.

[271] هذه الميزة مندرجة في التي قبلها؛ إلا أني رأيت تخصيصها بالذكر تأكيدا على أهميتها.

[272] سورة الزخرف، الآية 32.

فلو تساوى الناس في الغنى و لم يحتج بعضهم إلى بعض، لتعطلت كثير من مصالحهم ومنافعهم[273].

وكما أنه إذا كان زمام العقود بيد الطرف الغالب فيستبد به دون الطرف المغلوب المضطر، لفوت ذلك المصالحَ المقصودة من التعامل بين الناس.

وقد أباح الشريعة الإسلامية البيوع، والإجارات، والشركات، وأنواع المعاملات التي تتبادل فيها المعوضات بين الناس في الأعيان والديون والمنافع وغيرها. فقد جاءت الشريعة الكاملة بحل هذا النوع، وإطلاقه للعباد، لاشتماله على المصالح في الضروريات والحاجبات والكماليات، وفَسَحَت للعباد فسحا صلحت به أمورهم وأحوالهم، واستقام معايشهم.

وشرطت الشريعة في حل هذه الأشياء الرضا من الطرفين، واشتمال العقود على العلم، ومعرفة المعقود عليه، وموضوع العقد، ومعرفة ما يترتب عليه من الشروط.

ومنعت من كل ما فيه ضرر وظلم من أقسام الميسر والربا والجهالة. فمن تأمل المعاملات الشرعية، ورأى ارتباطها بصلاح الدين والدنيا، شهد لله بسعة الرحمة

[273] انظر تفسير السعدي (ص 764)

وتمام الحكمة، حيث أباح لعباده سبحانه جميع الطيبات، من مكاسب ومطاعم ومشارب، وطرق المنافع المنظمة المحكمة[274].

فمن قواعد الإسلام التي تكفل لمن التزمها الاستفادة السليمة من المال:

- ((لا ضرر ولا ضرار))[275] فإنه قاعدة عامة في جميع أمور الحياة، ومعناها: أنه لا يجوز للإنسان الإقدام على ما فيه ضرر له، وكما لا يجوز له إيقاع الضرر على غيره.
- ((البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما))[276] قاعدة كلية مطردة في جميع المعاملات، فلو أنها بنيت على هذين الركين – الصدق والبيان - لسادتها البركة واليمن.
- ((من غش فليس منا))[277] فيه ترك الغش بالتزام البيان والشفافية عندما يبيع أم يبتاع.

274

275 رواه أحمد في المسند (2865) وابن ماجه في السنن: كتاب الأحكام، رقم 2341.

276 رواه البخاري في صحيحه: باب إذا بين البيعان و لم يكتما ونصحا، رقم (2079) وأبوداود في السنن: باب فى خيار المتبايعين، رقم (3461) والترمذي في السنن: باب ما جاء في البيعين بالخيار ما لم يتفرقا، رقم (1246) وغيرهم.

- ((لا تبع ما ليس عندك))[278] فيه التأكيد على بناء المعـاملات الماليـة علـى الواقعيـة؛ بخلاف الاقتصاد الـوهمي الموجـود في الأسـواق اليـوم، ولـه دور كـبير في الأزمـة الاقتصادية التي عصفت في العالم أخيرا.
- ((إذا ابتعت طعاماً فلا تبعه حتى تستوفيه))[279] فيه أن الـربح إنمـا يكتسـب ويسـتحق بمخاطرة البائع بماله، وهذا خلاف تصـرفات البنـوك الـتي لا تتحمـل في عقودهـا أي مخاطرة ومع ذلك تربح فيها الربح الكبير، كمـا هـو في عقـود بيـع المرابحـة للآمـر بالشراء، وما ذلك إلا لاستبدادها بحق صياغة العقود وفرض شروطها.

هذه بعض القواعد التي بنا الإسلام عليهـا تعامـل النـاس للتحقـق لهـم بهـا المنـافع والمصالح المقصودة منها.

---

277 رواه مسلم في صحيحه: باب قول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من غشنا فليس منا، رقم (101) وأبو داود في السنن: باب فى النهى عن الغش، رقم (3454) بمعناه، والترمذي في السنن: باب ما جاء في كراهية الغش في البيوع، رقم (1315)

278 رواه أحمد في المسند (15311) والأئمة الأربعة في سننهم: أبو داود (3505) والترمذي (1232) والنسائي (4613) وابن ماجه (2187)

279 رواه مسلم في صحيحه: باب بطلان بيع المبيع قبل القبض، رقم (1529)

- أنه هو الدين الحق الذي لا يقبل الله من أحد دينا سواه: ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[280] فمن يدين لله بغير دين الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده، فعمله مردود غير مقبول، لأن دين الإسلام هو المتضمن للاستسلام لله، إخلاصا وانقيادا لرسله فما لم يأت به العبد لم يأت بسبب النجاة من عذاب الله والفوز بثوابه، وكل دين سواه فباطل[281].

وهذا ليس مجرد دعوى عارية عن دليل؛ بل المنصف إذا قارن بين أصول الأديان وتعاليمها يظهر له بوضوح كمال الإسلام وأنه هو الدين الوحيد الذي يصلح لجميع البشر؛ على اختلاف أجناسهم وتقاطع بلدانهم، وأنه الأنسب لحياتهم الاجتماعية في كافة جوانبها.

في الوقت الذي يجد جل ما عند غيره عبارة عن حكايات وأقاصيص ماضية، وشيء من الشعائر التعبدية[282].

---

[280] سورة آل عمران، الآية 85.

[281] انظر تفسير السعدي (ص 137)

[282] أخرت هذه الميزة لأنها كالثمرة لما قبلها.

فالشرائع ثلاثة – اليهودية والنصـرانية والإسـلامية - شـريعة عـدل فقـط، وشريعة فضل فقط، وشريعة تجمـع العـدل والفضـل، فتوجـب العـدل وتنـدب إلى الفضل، وهذه أكمل الشرائع الثلاث وهي شريعة القرآن الذي جمـع فيـه بـين العـدل والفضل مع أنا لا ننكر أن يكون موسـى عليـه السـلام أوجـب العـدل ونـدب إلى الفضـل وكـذلك المسـيح أيضـا أوجـب العـدل ونـدب إلى الفضـل. ومن الغضاضة بشريعة المرسلين أن يقال إن المسيح أوجب الفضـل وحـرم علـى كـل مظلوم أن يقتص من ظالمه، أو إن موسى لم يندب إلى الإحسـان؛ لكـن قـد يقـال إن ذكر العدل في التوراة أكثر، وذكر الفضل في الإنجيـل أكثـر، والقـرآن جمـع بينـهما علـى غايـة الكمـال.

والقرآن الكريم بين أن السعداء أهل الجنة، وهم أوليـاء الله نوعـان: أبـرار مقتصـدون، ومقربون سـابقون؛ فالدرجـة الأولى تحصـل بالعـدل وهـي أداء الواجبـات وتـرك المحرمات، والثانية لا تحصـل إلا بالفضـل وهـو أداء الواجبـات والمسـتحبات وتـرك المحرمـات والمكروهـات.

فالشريعة الكاملة تجمع العدل والفضل؛ كقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ ﴾[283] فهذا عدل واجب من خرج عنه استحق العقوبة في الدنيا والآخرة ثم قال: ﴿ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[284] فهذا فضل مستحب مندوب إليه من فعله أثابه الله ورفع درجته ومن تركه لم يعاقبه. وأمثاله كثيرة في القرآن؛ مثل قوله تعالى: ﴿ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾[285] فإنه عدل، ثم قال: ﴿ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ﴾[286] وهذا فضل.

فالله سبحانه دائما يحرم الظلم ويوجب العدل ويندب إلى الفضل؛ كما في آخر سورة البقرة لما ذكر حكم الأموال، والناس فيها إما محسن وإما عادل وإما ظالم؛ فالمحسن المتصدق، والعادل المعاوض كالبايع، والظالم كالمرابي287.

---

[283] سورة البقرة، الآية 280.

[284] سورة البقرة، الآية 280.

[285] سورة المائدة، الآية 45.

[286] سورة المائدة، الآية 45.

[287] انظر الجواب الصحيح لشيخ الإسلام ابن تيمية (59/5)

وكل من تدبر حال المسلمين وحال اليهود والنصارى تبين له رجحان حال المسلمين من كل وجه، وما كان هذا رجحان حال المسلمين إلا مستمدا من كمال دينهم، وأما أولئك فلا يعولون في الكثير من شؤونهم على أسس دينهم، وإنما يستوردون غالب من غيرها.

ولا يعارض هذا التقرير ما هو مشاهد من تخلف المسلمين في بعض جوانب حياتهم، فإن ذلك راجع إلى ابتعادهم عن دينهم الذي هو مكمن عزهم ورفعتهم، وقد بين الله ذلك في مثل قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾[288] فإنه وعد – إن تأملته – معلق بما وصفهم به من الإيمان والعمل الصالح وإخلاص الدين له، فينجز لهم الموعود بحسب اتصافهم بذلك الوصف؛ لأنه وصف معتبر يكون كالشرط لتحقق ما علق به أو تخلفه.

[288] سورة النور، الآية 55.

فلا يتهجه إذاً التهكم على الإسلام بسبب وضع المسلمين الذي لا يحسدون عليه، لأنه لم يكن شأنهم كذلك إلا لما تساهلوا في التمسك بدينهم علما وعملا.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلاًّ لاَ يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ))[289]

فبين أنهم متى قعدوا عن العمل بدينهم، وانجروا وراء الماديات الدنيوية ذلوا واستُذلوا، وأن العامل الوحيد لإماطة تلك الحالة عنهم إنما هو الرجوع إلى دينهم الصحيح الذي أنزله الله على نبيهم محمد عليه الصلاة والسلام.

والله تعالى يقول: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾[290]

فسبب كل تخلف أو تأخر يلحق المسلمين إنما هو من بعدهم عن تعاليم دينهم، ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾[291] وذلك حقيقة يعرفها من يعادون الإسلام، قادهم إليه استشراف تاريخ الإسلام، ولذلك يسعون دوما لإضعاف في نفوس المسلمين، قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾[292]

---

[289] رواه أبو داود في سننه (291/3) رقم (3464) والبيهقي في السنن الكبرى (316/5) رقم (11017)

[290] سورة محمد، الآية 7.

[291] سورة النساء، الآية 66.

[292] سورة الرعد، الآية 11.

وفي الطرف الآخر يشاهَد الترف المادي الذي يسبح فيه الغربيون مع إهدارهم للجانب الروحي؛ حتى صار ما تعلق بذا الجانب مجرد رموز أبقوا عليها للحفاظ على تراثهم الغربي، وذلك لعراقة تلك الديانات فيهم ولقوة صلتها بحضارتهم الغربية، فخافوا من اندثار تلك الرموز بالكلية حتى لا يكون ذلك عونا للإسلام على سد الفراغ الذي يخلفه في مجتمعاتهم.

هذا التفوق المادي يستشكله كثير من الناس؛ حيث يطرح عليهم هذا السؤال: إذا كان الإسلام هو الدين الصحيح، فلِم تفوق غير المسلمين على المسلمين في الجانب المادي ؟

والجواب المزيل لهذا الإشكال أن يقال:

أولاً: لا تلازم بين الإغراق الكلي في الماديات وصحة الدين وكماله؛ لأن الدين الصحيح وإن كان يضمن لأهله الحفاظ على مصالحهم، وينظم لهم حياتهم نحو الأفضل والأكمل؛ إلا أن التفوق في الجانب المادي البحت متوقف على الأخذ بأسبابه الكونية، ويستعين في ذلك

المؤمن بربه؛ لكن إتاحة تلك الأسباب وترتب المسببات عليها سنن كونية يستوي فيها المؤمن والكافر.

ثانياً: أن ما هو مشاهد لدى غير المسلمين من تفوق في الماديات يخفي هبوطا متناهيا في الجانب الروحي الذي به يكمل الإنسان.

قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾[293]

ثالثاً: أن الله قد يعطي الكافر ما يريد من الدنيا مع انهماكه في الكفر ليستدرجه بذلك.

قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ () وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾[294]

بأن يدر لهم الأرزاق، ويمهلهم حتى يظنوا أنهم لا يؤخَذون ولا يعاقبون، فيزدادون كفرا وطغيانا، وشرا إلى شرهم، وبذلك تزيد عقوبتهم، ويتضاعف عذابهم، فيضرون أنفسهم من حيث لا يشعرون[295].

---

[293] سورة الروم، الآية 7.

[294] سورة الأعراف، الآية 182-183.

[295] انظر تفسير السعدي (ص 310)

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((إذا رأيت الله تعالى يعطي العبد من الدنيا ما يحب و هو مقيم على معاصيه، فإنما ذلك منه استدراج))[296]

رابعاً: أن هذا التفوق على غيرهم في الماديات لا يتحقق لهم به السعادة في الحياة الدنيا ولا في الآخرة مع كفرهم بالله، فحياتهم رغب ما بلغوا في جانب البناء المادي ضنك محشوة بأنواع الهموم والغموم والأحزان، وإن تظاهروا بالانشراح والارتياح، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾[297]

خامساً: أن انغماسهم الكلي في الماديات قد يكون عونا للمسلم على العناية بكماله الروحي؛ مع استفادته مما يخترع على أيديهم بما يحقق بعض له مصالحه الدينية والدنيوية، فيكون بذلك ممتثلا بما أمره به: ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ ﴾[298]

---

[296] رواه أحمد في المسند (17311) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (413)

[297] سورة طه، الآية 124.

[298] سورة القصص، الآية 77.

سادساً: أن المؤمن يعيش في هذه الدار الدنيا هو على يقين أنه لم يخلق من أجلها، وإنما سخرت الدنيا له ليستعين بمتاعها على تحصيل الغاية التي من أجلها سكنها؛ بخلاف الكافر الذي يتفانى في اللهو بمتاع الدنيا وهو يحسب أن حياته لها.

سابعاً: أن الوضع لم يكن كما هو عليه اليوم إلا في الأزمان المتأخرة، وهو لا يدوم كذلك؛ بل سيحدث تحول في سير الأمر مع تقدم الأيام وحلول الحوادث، وإنما يحدث ذلك التحول حثيثا؛ لذلك لا يشعر به كثير من الناس، وإلا هو حاصل قطعا.

فإن من سنن الله الكونية أن كل رفيع من أمر هذه الدنيا فمآله الانهيار، وكل مقبل فيها فعاقبته الإدبار، وكل جديد فيها فمصيره الدمار، ومصداق ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((حقٌّ على الله أن لا يرتفع شيءٌ من الدنيا إلا وضعه))[299]

ثامناً: أن الإسلام حث المسلمين على الاعتناء بالوسائل التي تحقق لهم التقدم والرقي في الماديات على أسس وضوابط واضحة، فإن هم قصروا في ذلك الجانب حتى فاقهم به

---

[299] رواه البخاري في صحيحه: باب غاية السبق للخيل المضمرة، رقم (2372) وأبو داود في سننه: باب في كراهية الرفعة في الأمور، رقم (4804)

غيرهم، فلا يكون في ذلك أي قادح لدينهم الحنيف؛ بل هو تقصير منهم في العمل بتعاليم دينهم، فعدنا إلى الجواب الأول.

فنجلي بهذه الأجوبة غلط من يتوهم أن التأخر والتخلف الحقيقيين هو ما كان في الماديات، وأن التطور والتقدم فيها أيضا، وما ذلك لتلوث عقولهم بالمادية المعايشة حتى صاروا بها يقيسون ويكيلون.

والتخلف الحق إنما هو في عدم إكساب الإنسان روحه وتحليتها الصفات التي تحصل لها الكمال والسعادة، وعريها منها يهبط بها إلى أسفل السافلين.

انظر إلى ما قاله حكاه طارق بن شهاب عن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، قال: لما قدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه الشام ؛ لقيه الجنود وعليه إزار وخفان وعمامة، وهو آخذ برأس راحلته يخوض الماء، وقد خلع خفيه وجعلهما تحت إبطيه، فقالوا له : يا أمير المؤمنين ! الآن تلقاك الجنود وبطارقة الشام وأنت على هذه الحالة ! فقال عمر رضي الله عنه: إنا قوم أعزنا الله بالإسلام؛ فلن نلتمس العزة بغيره[300].

فهذا العز الذي يجعله الإسلام في نفس العبد يوجب له من السعادة وانشراح القلب ما لا ينال بالمال والمادة.

---

[300] المجالسة وجواهر العلم (273/2) رقم (418) والزهد لهناد بن السري (417/2) رقم (817)

خاتمة البحث

السؤال المطروح في هذا البث هو: لماذا الإسلام ؟

وهو سؤال يحتمل معنيين:

- لماذا أنزل الله الإسلام على عباده ؟
- لماذا لا بد للإنسان من الإسلام ؟

فيجاب عن الأول بأنه دين مترل من أجل تعريف الإنسان حقيقته، وحقيق العالم الذي يعيش فيه، والغاية التي من أجلها سكنه، وبمصيره عند مغادرة هذه الدار.

ويجاب عن الثاني: بأن الإسلام هو الوسيلة التي لا يمكن الإنسان أن يحقق الغاية من وجوده في دار الدنيا، ويحافظ على المصالح الضرورية التي فاق بها غيره من الحيوانات.

فالإنسان كما هو محدود القدرة في جميع أعضاء جسمه، فعقله تبع لها فهو محدود، وعجزه عن إدراك حقيقة وتفاصيل أمر معين لا يصح الاستدلال به على عدمه؛ بل هو قصور يُتلافى من قوة خارج العقل القاصر، كما هو الشأن مع سائر أعضاء الجسم.

فإن العقل البشري الصحيح يدرك ضرورة أن لهذا الكون خالقاً ومدبراً، وأنه يستحيل وجوده من غير موجِد؛ لأنه حادث مسبق بعدم، فكان حدوثه ووجوده متوقفا على إيجاد موجِد غيره؛ لأن المعدوم لا يوجد نفسه، ولا يوجده العدم.

وأما الغاية التي من أجلها وجد الإنسان في العالم، فالعقل يدرك بما يشاهد من عظمة أمر العالم المقتضية عظمة خالقه واتصافه بالكمال المطلق في جميع وجه، أن وجوده ليس للعب والعبث؛ بل وراءه غايات سامية ومقاصد شامخة، ثم يفتقر إلى ما يوقفه على تفاصيل تلك الغايات وسبيل الوصول إليها.

فالإسلام جاء من أجل تعريفه بتلك الحقائق الضرورية وإيصاله إليها.

وبعد اهتداء العقل البشري إلى تلك الحقائق يلزمه القيام بتحقيق تلك الغاية العظيمة التي إذا تخلفت عن حياته صارت عبثا بلا طائل.

فالإسلام جاء من أجل منح البشر الوسائل التي يتمكنون بها من القيام بتحقيق تلك الغايات. فإن الدين الإسلامي بكمال مبانيه وأسسه، وعصمة تعاليمه، هو الدين المؤهل ليكون الوسيلة التي بها يحقق الإنسان الغاية من وجوده؛ الغاية التي إذا أخطأها الإنسان لم يبق لوجوده أي معنى؛ لأنه إذ الأمر كذلك لا يعدو حيوانا يتقلب لإشباع شهوتي بطنه وفرجه.

ثم عند مغادرته هذه الحياة الدنيا إلى الدار الآخرة يتحقق من خسارته نفسه وكل ما ملكه فيها؛ الحياة الآخرة التي تكون بحسب ما قضى عليه دنياه؛ إن على نور فنور، وإن على ظلام فظلام، والنور نور الجنة ولسعادة، والظلام ظلام النار والتعاسة.

فما أجدرك أيها الإنسان العاقل أن تلتمس هذه الوسيلة الضرورية لتقتنيها قبل حينونة الرحيل وفوات الأوان: ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[301]

فإن خالقك قد أعذرك بما أنزل عليك من كتاب مبين يحوي أسس دينه وأصوله، وأرسل إليك من نبي رحيم، أقام في الناس حينا من الدهر يبين فحواه ومعناه: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[302]

((ولا أحد أحب إليه العذر من الله، ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين))[303]

---

[301] سورة الحشر، الآية 18.

[302] سورة النحل، الآية 44.

[303] متفق عليه: البخاري في صحيحه: باب قول النبي: لا شخص أغير من الله، رقم (7416) ومسلم في صحيحه: باب غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش، رقم (2760)

الإسلام هو دين الكمال والعدالة، ودين الوسط والسماحة، لا يشوبه غلو الغالي، ولا يشينه تقصير المقصر، يشن أعدائه الإغارة عليه فغزاهم في عقر دارهم، ويحالون تشويه صورته الناصعة فتبرق أساريره في مشرق عالمهم، لأنه دين أُنزل ليبقى في الأرض ويستقر؛ لا ليضمحل ويندثر.

وأنزل الله الإسلام ليحقق به إكرامه وتفضيله للبشر، ولتتم به رحمته إياهم: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾[304] هذه الرحمة هي أم سعادتهم وفلاحهم في حياتهم الدنيا والآخرة. قال رسول الله ﷺ: ((لن يُنجي أَحَداً منكم عَمَلُه)) فقال رجلٌ : ((ولا أنت يا رسول الله ؟ فقال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة))[305]

بهذا أحسب أني قد أجبت عن سؤال من سال: لماذا الإسلام ؟

والله أعلم، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

كتبه: أبو محمد مور كبي، خريج كلية الحديث بالجامعة الإسلامية- المدينة، ومدرس علوم الحديث بالكلية الأفريقية للدراسات الإسلامية. morkebe@gmail.com

[304] سورة الأنبياء، الآية 107.

[305] متفق عليه: البخاري في صحيحه: باب تمني نهي تمني المريض الموت، رقم: (6467) ومسلم في صحيحه: باب لن يدخل أحد الجنة بعمله...، رقم (2818)